مدرستا أهل القرآن واقرأ لتعليم القرآن الكريم

مقرر المسابقة الحادية عشر

تفسير القرآن الكريم
الجـــزء الحادي عشر

من كتاب
الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز

يمكنكم الحصول على تفاصيل المسابقة وتنزيل نسخة إلكترونية من هذا المحتوى عبر
موقع المدرستين على شبكة المعلومات العالمية
http://areejquran.com

دعوة من القلب

لأننا نحبكم في الله فإننا نوجه إليكم دعوة من القلب لخدمة دين الله تعالى من خلال المشاركة في نظام السهم الوقفي والذي يمكنكم التعرف عليه من خلال الرابط المذكور أعلاه أو التواصل عبر الأرقام ٩٩٢٠٦٣١٥ – ٩٨٢١١٢١١ – ٩٢٥٠٨٦١٣

سائلين المولى عز وجل أن يجعل إنفاقكم صدقة جارية في ميزان حسناتكم.

تفسير الجزء الحادي عشر

١. اعتذار المتخلفين عن الجهاد، وحلفهم لاسترضاء المؤمنين

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾

بعد عتاب الله تعالى المعذرين والقاعدين عن القتال، وَرَفْعِ الحرج عن أصحاب الأعذار الحقيقية، يُخْبِرُ الله المؤمنين بما سيكونُ من المنافقين الذين تخلفوا عن الغَزْوِ إلى تبوك، بعد عودتهم إلى المدينَةِ.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ لما ترجعون من غَزْوَةِ ذات العسرة إلى المدينة، سَيُقَابِلُكم المنافقون المنتحلون للأعذار الواهية الكاذبة بالاعتذار عن جميع ما ارتكبوه لأجل البقاء والقعود عن الجهاد، ففي ذلك الحين قل لهم يا محمد بلا شك ولا تردد: "لن نُصَدِّقَ دَعَاوِيكُم الباطلةَ وحُجَجَكُم الضَّعِيفَةَ، لأن الله قد كشف لنا ما في قلوبكم من خُبْثٍ وَمَكْرٍ وَخِدَاعٍ، فقد آن أَلَّا نُعَامِلَكُم بظواهِرِكم المخالفةِ لِبَوَاطِنِكم، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إن اللهَ ورسولَهُ مُطَّلِعٌ على أعمالكم في المستقبل، سواء تبتم فأحسنتم، أو نكثتم فبقيتم على نفاقكم وخِدَاعِكم، وسَتَرْجِعُون إلى ربكم، وهو عالم الغيب والشهادة لِيَعْرِضَ عليكم ما اقترفتموه من الآثام والخطايا، فَكَيْفَمَا تكونوا أشرارا أو أخيارا سَيُعَامِلُكُم اللهُ ورسولُهُ" بما تسْتَحقّونَه، وفي هذا ترغيبٌ لنهج طريق الله السَّوِيّ، وَدَفْعٌ للتوبة من النِّفَاقِ والفُسُوقِ، وحَضٌّ على اكتساب الأعمال الصالحة، التي سَتَنْفَعُهُم في الدنيا والآخرة. وتكملة لبيانِ موقفِ المنافقين لَمَّا يُكَذِّبُهُم المؤمنون بعد رجوعهم من الغزوة، يقولُ تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ سيؤكدون لكم تلك الأعذارِ بأيمانٍ كَاذِبَةٍ لما ترجعون إليهم من الغزو، وَالقصدُ من حَلْفِهِم: رَجَاءُ الإعراضِ عنهم، أي الصفْحُ عنهُم وعدم تقريعِهِم وتوبيخِهِم، ولكن قال اللهُ تعالى: "فَأَعْرِضُوا"، أي فإذا كانوا يرومون الإعراض عنهم فأعرضوا عنهم تماما، وهذا ضربٌ من التقريع؛ فيه إطماعٌ للمَغْضُوبِ عليه الطَّالِبِ بأنه أُجِيبَت طَلْبَتُهُ حَتَّى إذا تَأَمَّلَ وَجَدَ مَا طَمَعَ فِيهِ قَدِ انْقَلَبَ عَكْسَ المَطْلُوب، أي أَعْرِضُوا عنهم إِعْرَاضَ مهانةٍ واحْتِقَارٍ، لا إعراضَ صفحٍ وتسامحٍ، وعلة الإعراض عنهم: كونُهم أَرْجَاسا؛ والرِّجْسُ: خُبْثُ النَّفْسِ وَدَنَاءَتُهَا، وهو في الجَانِبِ المعنوي، أَيْ أَنَّهم أُنَاسٌ لم تَصْفُ قلوبُهم من الأدران والأحقاد والمكائد والوساوس، ويخبرنا الله تعالى عن مثواهم الأخير في حالة

تَشَبُّثِهم بضلالَاتِهم بقوله:﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي بهذه الأرجاس المُتَغَلْغِلَة في نفوسهم هم يقررون مصيرهم الأبدي بأيديهم في جهنم الحامية، وهو جزاءٌ وفاقٌ لما قَدَّمَتْهُ أيديهم، ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يُنْبِئُنَا الله تعالى عن مُتَضَمَّنٍ آخر لحلْفِهِم السابق وهو الرِّضَى وَعَدُّهمُ من المُؤْمِنِينَ، وفي حالةِ رضاكم أنتم المسلِمين عن المنافقين العَاصين بمعصيةِ التَّخَلُّف عن الجهاد؛ فإن الله لن يرضى عنكم وعن المنافقين الفاسقين، لأَنَّ الفاسقَ والراضي بفسقه سواء، ومن هنا كان هذا الموقِفُ العَقَدِيُّ أقوى أسلوبٍ لردعِ المنَافِقِين وتَرْبِيتهم على الإنابة إلى الله والتوبة النصوح، وقد كان هذا المرتكز العقدي (الولاية والبراءة) من أصول العقيدة الإسلامية، وهو عمل إجرائي فَعَّالٌ لمكافحةِ المعصِيَة والشُّرُورِ في كلّ مستويات السُّلَّمِ الاجتماعي، ولضمان طهر المجتمع وسلامته من الانحراف السلوكي الأخلاقي.

٢. الأعراب أشد كفرا ونفاقا إلا المؤمنين منهم

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)﴾

فبعد أن ذكر الله تَعَالى أحوال المعذرين من الأعراب في ما سبق مع الذين كَذَبُوا اللهَ ورسولَه، عَادَ السياقُ لتفصيل أحوالهم، وبَيَانِ مَرَاتِبِهم، قَصْدَ إعطاءِ المؤمِنِينَ التَّصَوُّرَ الدقيقَ عنهم، لكونهم بُعَدَاءَ عنهم، فالأعرابُ في البادية والرسولُ وأصحابه في المدينة.

شاء الله عزوجل أن يمر الإنسان على طور البداوة إلى طور الحضارة، ولكل مميزاتها وخصائصها الفريدة، فللبدوي الأعرابي الشجاعة والصبر والكرم ... وهي صفات إيجابية، وكما أنه أيضا طُبِعَ على القساوة والغلظة والصلابة، مُتَأَثِّرًا بطبيعة الصحراء التي يقطنها، وزيادةً على ذلك بُعْدُهُ عن مشاهدةِ أنوارِ الرسالةِ القرآنية وتطبيقاتها المحمدية، الأخلاقية والاجتماعية وغيرها، وقِلَّةُ احتكاكه بمجتمع المدينة المتحضر، من مُهَاجِرِينَ و أنصارٍ ويهودَ، فَتَوَلَّدَ عن ذلك كُلِّهِ عند الأعرابي البدوي الجهلُ برسالة الإسلام وتعاليمها وحدودها الشرعية، فضلا عن لطائفها وقيمها السمحة، فقال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ الأعرابُ في البادية بالنسبة لسكان المدينة هم أقوى كُفْرًا ونِفَاقًا، وهُمْ الأَوْلَى -الأعرابُ- أيضا بجهل حدود شَرْعِ الله المنزل على رسول الله محمد ﷺ، من أهل الحضر الملازمين لرسول الله المتلقين أنوار هديه كل حين وآن، ويجوز في "أشد" و "أجدر" أن يكونا

مسلوبي المفاضلة مستعملين لقوة الوصفين في الموصوفين بهما، كأنه قال: شديدي الكفر وجديرين بالجهل ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عِلْمُ الله محيطٌ بمكنُونَاتِ الكُفَّاروالمنافقين من الأعراب، ودَرَجَةِ كُفْرِهِم ونِفَاقِهِم من أهل الحضر، وحكمته دقيقة فيما ينعتهم من الأوصاف، غير مُتَعَدٍّ عليهم. وبعد إِطْلاق الحكم العام على الأعراب، يأتي السِّيَاقُ إلى تخصيصِ بعض فئاتهم على حسب درجاتهم في النفاق والإيمان، يقول تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ ومن أعراب البادية من لم ينفق ماله في الجهاد إلا تَقِيَّةً وَخِدَاعًا وخَوْفًا من المؤاخذة والمعاتبة من قبل المؤمنين، والمغْرَمُ: ما دُفِعَ من المال قَهْراً وظُلْمًا، أي لم ينفقوا أموالهم بطيبة أنفسهم، وإرضاءً لربهم، بل يرون أنهم أُكْرِهُوا على الإنفاق اضطرارا، وذلك لِضُعْفِ إيمانهم أو انْعِدَامِهِ، وإضافةً على ذلك ينتظرون انْتِظَارَ تَرَقُّبِ العَدُوِّ لعدوه أن تدور على الإسلام والمسلمين دوائر الهزيمة والمحق والأفول، لِيَتَخَلَّصُوا إطلاقًا من التّكاليف الثقيلة المفروضة عليهم، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى رَدَّ عليهم بما ينعكس عليهم شرا وسوءا على شكل دعاء أوخبربحقيقة حالهم، بأنهم هم الذين تدورعليهم دائرةُ العذابِ والخِزْيِ في الدنيا والآخرة، لما اكتسبوه من الإثم والعداوة للإسلام والمسلمين، والدوائر: المصيبات التي تحيط بالشخص ولا يجد خلاصا عنها، أي يتربص بكم دوران المصائب عليكم، والدائرة تختص بالشر فإضافتها للسوء مبالغة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عنه خافية من دسائسهم ومكائدهم، وما يتناجون به من الإثم والعدوان في مجالسهم.

ومن أصناف الأعراب المؤمنون الخُلَّصُ المتمَيّزُون بنو اياهم الطيبةِ الطَّمُوحُونَ إلى جنة ربهم بِقَرَابِينِهِم المُقَدَّسَةِ، يقولُ الله تعالى عنهم: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ ومن الأعراب من آمن بالله واليومِ الآخر حَقَّ الإيمان، فدفعته شُحْنَات إيمانه القوية للإنْفَاقِ في سبيل الله بكل ما أوتي من قوة، قَصْدَ التَّقَرُّبِ إلى الله والتقرب إلى الاغتراف من معين صلوات الرسول ﷺ وهي أَدْعِيَتُهُ المباركةُ، لينالوا من الأول الرضا والهداية والتأييد والنصرة ومن الثاني دعما للقبول واستجابة الدعاء، وَعَبَّرَ بِالقُرُبَاتِ بصيغة الجمع لتعدد أوجه الإنفاق، وقُدِّمَ الإيمانُ بالله واليوم الآخر على العمل الصالح لكونه هو المُؤَثِّر، ولأن العقيدةَ الصحيحةَ الجازمةَ اليَقِينِيَّةَ في قلب المؤمن هي الدافعة بالإنسان لفعل الخيرات وترك المنكرات. ويجيب الله دعوةَ المنفِقِينَ الآملين التقربَ إلى الله وَبَرَكَةَ دعواتِ الرسول بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ افتتحت الجملة بأداة: "أَلاَ" للتَّنْبِيهِ بمضمونِ الجملة المؤكدة بإِنَّ، أي لهم ما يأملون، وَصَدَقَ تَقَرُّبُهُم إلى الله، وَسَيَجْزِي اللهُ نفقاتهم الخالصة وعدم اقتر افهم المعاصي بإدخالهم رَحْمتَه في اليوم الآخر، وَرَحْمَتُهُ هي جَنَّتُهُ ورِضْوَانُهُ، التي تقيهم عذابَ جَهَنَّمَ، قال تعالى:﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ [غافر: ٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾ غفور عن تقصيرهم وزلّاتِهم وذنوبهم التي أحدثوها ما داموا توابين مستغفرين، ورحيم بهم بإدخالهم جنات النعيم يوم مَعَادِهِ.

٣. بيان فصل السبق في الإسلام، والتحذير ممن مرد على النفاق

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾

بعد ذِكْرِ الفئاتِ المتَلَبِّسَةِ بالكفر والنفاق من الأعراب، أَعْقَبَهُ بذكر الفئة القدوة الصالحة والمَثَلِ الكامل في الالتزام والتقوى، وبيان أركان النفاق في البادية والمدينة، ليأخذ المؤمنون حذرهم.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ والمقصود بالسبق: السَّبْقُ في الإيمان والعمل الصالح، وقد اخْتَلَفَ المُفَسِّرُون في تحديد المدة التي عندها ينتهي وصف السابقين من المهاجرين والأنصار مَعًا، وَلَكِنَّ الرأي الأشهرَ أنهم هم الذين سبقوا بالإيمان قبل أن يهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، والسابقون من الأنصار هم الذين سبقوا قومهم بالإيمان، وهم أهل العقبتين الأولى والثانية كما تذكر كُتُبُ السِّيرةِ، وَلْيَتَنَبَّه الإنسان المسلم إلى أَنَّ الآية لم تذكر أسماءَ هؤلاء السابقين، وإنما نَوَّهَتْ بأسبقيتهم، ولذا لا يمكن أن تُسْقَطَ الآيةُ على أعيان من ذُكِرُوا في السيرة النبوية، أو أَنْ يَجْزِمَ بأن ذواتهم هم المعنيون في الآية، لأن ذلك ليس من اختيارات الإنسان، والله وحده عالم بأعيانهم، ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ والذين جاؤوا بعد هؤلاء السَّبَّاقِينَ الأَوَّلِينَ بالإيمان الجازم والتقوى الخالصة إلى يوم القيامة، واتَّبَعُوهُم في ذلك السبيل غَيْرَ مُسِيئِينَ بشيءٍ يَخْدِشُ إيمانهم وتقواهم، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كُلٌّ من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين سلكوا نفس طريق الوفاء بدين الله إلى يوم القيامة، رضي الله عنهم بقبول إيمانهم وطاعتهم وقُرُبَاتِهم ونصرتهم على أعدائهم وإكرامهم في الدنيا والآخرة، وَرَضُوا عن ربهم لكثرة إحسانه إليهم في الدنيا بالنعم الجَلِيلَةِ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ هَيَّأَ الله تعالى للسابقين الأولين والمُتَّبِعِينَ لهم بإحسان إلى يوم الدين جَنَّاتٍ رَفِيعَةَ المنزلة، وأنهارًا جاريةً تَحْتَهَا، مقيمين فيها أبدا، لا يخرجون منها، والمَلْحَظُ في الآيةِ خُلُوُّ حرف الجر (مِنْ) قبل الظرفية (تحتها)، ولم يرد هذا في القرآنِ الكريم إلا في هذا الموضع، وَوُرُودُ حرف الجر قبل الظرف لا يكون إلا تأكيدا، فيكون خلو الجملة من التأكيد لحصول ما يغني عنه من إفادة التقوي بتقديم المسند إليه (السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) على الخبر

الفعلي، ومن فعل (أَعَدَّ) المُؤْذِن بكمال العناية فلا يكون المُعَدُّ إلا أكمل نوعه، ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ "ذَلِكَ"إشارة إلى الثواب الرفيع الذي أُكْرِمَ به من ذُكِرُوا قَبْلُ، أي من نَالَ ذلك الجزاءَ الكبيرَفقد فازفوزا عظيما حقيقيا، وَكَأَنَّهُ قَالَ: اطْمَحُوا بأعمالكم الصالحة مع طموحاتكم الدنيوية المتنوعة إلى أفضل نجاح، وهو الدخول إلى الجنة. وَبَعْدَ ذكر المثل الأعلى والنموذج الأروع من أهل المدينة، يُكْشَفُ للمؤمنين من حولهم من الناس وطبائعهم ليأخذوا حذرهم ولا يغتروا بجملة المسلمين عامة، بقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾يُحَذِّرُ اللهُ المؤمنين مِنَ الأعْرَابِ الذين أَسْلَمُوا أَنَّ منهم مُنَافِقين، وهم قَلِيلُونَ كما أفادت "مِنْ" التبعيضية، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ ومن مَدِينَتِكُم أَهْلٌ تَمَرَّنُوا على حِرْفَةِ النِّفَاق وَحَذَقُوا فِيهِ، حَتَّى صاروا فيه أساتذةً مَهَرَةً وَكُبَرَاءَ مَرَدَةً، كَمَرَدَةِ الشَّيَاطِين، فاحذرهم يا محمد و اتَّقِ بَأْسَهُم وَمَكَائِدَهُم لِأَنَّكَ ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تملك يا محمد سماتٍ مُعَيَّنَة وملامحَ مُحَدَّدَة لِتَعْلَمَهُم بِهَا، نَحْنُ اللَّذينَ جَعَلْنَا العِلْمَ بهم وأحوالهم من خَاصَّتِنَا دون غيرنا –الرسول محمد ﷺ، و انتفاء علم الرسول ﷺ بهم، لحكمةٍ يريدها الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، والمرادُ بِعِلْمِ الله بِهِم: تهديدُهُم وترغيبُهُم إلى التوبة خشيةَ افتضاح أمرهم كسائر المنافقين. ثم بَيَّنَ الله عاقبةَ نِفَاقِهِم بقوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ اطمئن يا محمد من أمرهم سيؤاخذهم الله بتعذيبهم مَرَّتَيْنِ، وقد اختلف المفسرون بمراد المَرَّتَيْنِ مع ذكر عذاب الآخرة، والمرتان موقعهما في الدنيا، وَلَعَلَّ الرأي الأقرب إلى الحقيقة تماشيا مع سياقات القرآن الكريم واللسانِ العَرَبِيّ المبِينِ قولُ الإمام الطاهر بن عاشور في تفسيره: "والظاهر عندي أن العدد مستعمل لمجرد قصد التكرير المفيد للتأكيد كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك : ٤] أي تأمل تَأَمُّلًا مُتَكَرِّرًا. ومنه قولُ العرب: لبيك وسعديك، فاسم التثنية نائب مناب إعادة اللفظ. والمعنى: سنعذبهم عذابا شديدا متكررا مُضَاعَفًا، كقوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب : ٣٠]"[1]، ثم يرْجِعُ المنافقون كلهم إلى قعر جهنم في الآخرة، حيث العذابُ العظيمُ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِوَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

٤. قبول توبة المعترف بذنبه، وأخذ الصدقة من ماله لتطهيره

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌرَحِيمٌ (١٠٢)خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١١،ص٢٠.

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾

ثم أضاف الله صنفا آخر مَعْطُوفًا على من تَقَدَّمَ فقال: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ اختلفت الروايات في تحديدِ ذواتِ الأشخاص وأعدادِهم، وكَونِهم مُؤْمِنِين مُخْلِصِينَ أو منافقين مردةً، وأكثر المفسرين على أنهم عدد من الصحابة تخلفوا عن غزوة تبوك منهم أبو لبابة ثم ندموا على تخلفهم وربطوا أنفسهم في سواري المسجد ولم يرضوا أن يحلوها حتى يتوب الله عليهم، والحقيقةُ أَنَّ العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكما أَنَّ القرآنَ الكريمَ كتابُ هدايةٍ لجميع البشر في مختلف الأزمان، لذا فالآية تَعْنِي أَيَّ مُسْلِمٍ اقْتَرَفَ ما ارْتَكَبَتْهُ تلك الفئةُ: خَلْطُ الأعمال الصَّالحة بالأعمال السَّيِّئَةِ، سواء كان منافقا أو مؤمنا مخلصا، وقد لقي الرسول ﷺ هذه الفئة، بعد رجوعه من غزوة تبوك خائفةً على أمرها، مُعْتَرِفَةً بذُنُوبِهَا، المُتَمَثِّلَةِ في تخلفهم عن الغزوة كَسَلًا وطلبًا للراحة، والبخل بأموالهم فيها، وخَلْطِهِمْ ذَلِكَ العملَ الطالح بأعمالٍ صالحةٍ سابقة أو مَعَهَا، كزكواتهم وصلواتهم، وطاعاتهم المختلفة وقُرُباتهم الكثيرة وغيرها، أي حصل لهم في رصيد أعمالهم سيئات وحَسَنَات، وهذا مما لا يقبله الله تعالى من عبده، لضرورة إخلاص العبادة لله وحده دون غيره. ولاعتراهم الصادق ونواياهم الخالصة وعزائمهم الأكيدة بَشَّرَهم الله بقبول توبتهم، وحقيقةُ كلمةِ "عَسَى" للرجاء، ولكن هي في حق الله واجب مَقْضِيٌّ، ومن أسرار وُرُودِهَا جَعْلُ المكلف دائما بين الخوف والرجاء في قبول توبته، مستغفرا ربَّه آناء الليل وأطراف النهار لذنوبه وسقطاته ما فتئ حيا، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَعْدٌ مُؤَكَّدٌ لكل أواب إلى الله معترفٍ بذنوبه بالمغفرة وقبول التوبة، والرحمة في الدنيا بنعيمها وأمانها، وفي الآخرة بزحزحته عن النار وإدخاله الجنان.

ونَاسَبَ بعد ذكر المعترفين بذنوبهم، المُتَخَلِّفِينَ عن فريضَةِ الجهاد وإنفاق الأموال في سبيل الله الحديثُ عن تَدَارُكِ ما فَاتَهُم من الأَجْرِ والثَّوَابِ وكيفيةِ التَّنَصُّلِ من الخطايا والآثام، فأَمَرَ اللهُ تعالى محمدا ﷺ بما فيه نجاتهم في الدنيا والآخرة.

لما كان تَخَلُّفُهُم عن الجهاد لحُبِّ الدُّنْيَا والاشْتِغَالِ بأموالها الفانية، أمر الله نَبِيَّهُ بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ خُذْ يا محمد من أموال التائبين من ذَنْبِ التَّخَلُّفِ عن الجهاد وعدم الإنفاق في سبيل الله، صَدَقَةً ماليةً كَفَّارَةً لذنبهم، تُطَهِّرُهُم بها، والتطهيرُ: التَّنْقِيَةُ والتَّخْلِيَةُ، أي تكونُ لهُم سببا للاستشفاء من أمراض النفوس كالبُخْلِ والشُّحِّ والإفراط في الكسب على حساب طاعة الله تعالى، ... وغيرها، وتُزَكِّيهِم بها، والتَّزْكِيَةُ: الإِنْمَاءُ، أي تكون لهم نماءً لحسناتهم وبركةً في أرزاقِهِم، ومن البعيد تفسيرُ الصَّدَقَةِ هنا بالزكاة الواجبة، لكون الآية في سياقِ اعتراف المذنبين، وإصلاح العمل بعد الإفساد، وقد

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه : ٨٢]، وتُعَدُّ هذه الصدقة بمنزلة العمل الصالح بعد توبة العبد لربه. وبعد قَبْضِكَ يا مُحَمَّد صدقَتَهُم أكرمهم بجميل دعائك، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ وادع لهم يا محمد بدعو اتك الطيبة ليتقبل الله منهم صدقتهم، لأنَّ دَعوَ اتِكَ سَكَنٌ لهم، والسَّكَنُ: ما يُسْكَنُ إليه، أي يُطْمَأَنُّ إليه ويَرْتَاحُ بِهِ، وهو مشتق من سُكُون النفس، أي هو سلامَتُها من الخوف ونحوه، وسَكَنُهُم بصلواتِ الرَّسُولِ يَعْنِي الاِطْمِئْنَان إلى قبول صدقتهم من قِبَلِ رَبِّ العَالمين، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والله سميع باعتر افات المُذْنِبين ودعوات الرسول لهم، عليمٌ بندَمِهم وتَقْدِيمِ صدقاتِهم قُرْبَانًا إلى الله، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ هذه الجملة استئنافية ابتدائية على طريقة الاستطراد في مقام ترغيب الذين لم يتداركوا أنفسهم بالتوبة من بقية المنافقين، جاءت بصيغة الاستفهام الاستنكاري، يتوجه فيها رَبُّ العِزَّةِ إليهم بسؤاله: ألم يُدْرِكُوا ولم يتعلموا من قَبْلُ في القرآن الكريم مع رسول اللهِ أن الله قابلُ التَّوْبِ عن عبده ما دامت توبتُه نصوحًا صادِقَةً؟، آخذُ الصدقات أي يقبلها، ونُسِبَ الأَخْذُ إِلَى الله تعالى مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ هو القَابِضُ الفعلي، لأن الله هو الآمر بأخذها، ونظرا إلى الثواب الذي يرجوه المأخوذة منه من الله، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ألم يعلموا أيضا أن من أسماء الله الحسنى، التواب وهو الذي يقبل التوبة عن عباده، الرحيم وهو الذي يرحم عباده المتقين الأوابين يوم القيامة بإنقاذهم من عذابه وإدخالهم رحمته؟، فَلْيَعْمَلِ النَّاسُ بما عَلِمُوهُ، وَيَؤُوبُوا إلى رَبٍّ تَوَّابٍ رَحِيمٍ. ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وقل يا محمد للناس بعد توبتهم من ذُنُوبِهم، تَزَوَّدُوا بالأعمال الصالحات وعَمِّرُوا أوقاتَكُم بالحسنات لِتَسْتَدْرِكُوا مَا فَاتَكُم مِنَ الأَوْقَاتِ الضَّائِعَةِ فِي عَمَلِ السَّيِّئَاتِ، ولِتُجَمِّلُوا صحائفكم بالقربات والعبادات، لأن اللهَ رائيها ورسولُهُ والمؤمنُونَ، فلا تُسِيئُوا فيها بارتكاب المعاصي والآثام، وَمَعْنَى رُؤْيَة الرسول والمؤمنين لأعْمَالِ الناس، مُعَامَلَتُهم على حَسَبِ طبيعة عملهم، لأنهم شهداء الله في أرضه، فَإِنْ كانوا مُؤْمِنِينَ حَقًّا عَامَلُوهُم بِالكَرَامَةِ والحُسْنَى، وإن كانوا عصاةً منافقين لم يرضوا عنهم وتبرؤوا من فعلهم إلى أن يتوبوا. ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وسترحلون عن الدنيا مُحَمَّلِينَ صحائِفَ أَعمَالِكم لتستقروا في الدار الآخرة، حَيْثُ مَالِكُهَا الله تعالى، عَالِمٌ بما غاب عن الإنسان وما شهده، ليخبركم عن نتائج اختباركم في الدنيا، إن خَيْرًا فَخَيْرٌ، وإن شَرًّا فَشَرٌّ، داران لا ثالث لهما، جنةٌ مريحةٌ، أو جهنمُ مُتْعِبَةٌ.

٥. أقسام المتخلفون في غزوة تبوك

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)﴾

انقسم المتخلفون عن غَزْوَةِ تبوكٍ إلى ثلاثة أقسام؛ وهي: قِسْمُ المُنَافِقِينَ، قِسْمُ المعتَرِفِينَ بذنبهم، قِسْمُ الذين توانوا وتكاسلوا في أمر التوبة، والقسمُ الأَخِيرُ هو المقصودُ في الآية، وأخباره وتفاصيله نبأتنا بها السَّنَةُ النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.

يَتَكَوَّنُ هذا القسم من ثلاثة أشخاص: مُرَارَةُ بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، نوى الفريق وَشَدَّ رحالهُ لمشاركة المسلمين في الغزوة، ولكنهم شُغِلُوا في المدينة بمتاع الدنيا أثناء رَحِيلِ جَيْشِ المسْلِمِينَ، وَظَنُّوا أنهم لاحِقُوهُ، وانقضت الأيام وَأَيِسُوا مِنَ اللَّحَاقِ به، فَبَقُوا في المدينة، ولَمَّا رجع المسلمون من الغزوة لم يُسَارِعُوا إلى رَسُولِ الله، ليعترفوا له بتقصيرهم، كَمَا سَبَقَ الذين ذُكِرُوا قَبْلُ باعترافِهم ومحالَلَتِهم ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ...﴾، فأرجَأَهم الله في أَمْرِ التَّوْبَةِ لتقاعسهم وعدم المسارعة، وأمر نَبِيَّهُ باعتزالهم وعَدَمِ مُعَامَلَتِهم، ونَفْيِ الجُلُوسِ مَعَهُمْ، قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ والآخرون -الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو- أُمْهِلَ أَمْرُهُم إلى حُكْمِ اللهِ تَعَالَى، إِمَّا تَعْذِيبُهم لعدم قبول توبتهم، أو قَبُولُ تَوْبَتِهِم، وهذا التَّرَدّدُ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ مصروفٌ إلى الناسِ، لاَ إِلَى اللهِ تَعَالَى، لأن الله تعالى عالم بهم في الأزل وبما سيؤول إليه أَمْرُهُم، والإرجَاءُ والإبْهَامُ كان قَصْدَ إِرْهَابِ النَّاسِ وإِشْعَارِهِم بخطورة عصيان الخَالِقِ ﷻ، وقد تَأَخَّرَ الفَصْلُ في أمر الثلاثة إلى مُضِيّ خمسين يوما من رجوع الرسول ﷺ من الغزوة، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ واللهُ عليمٌ بمن يستحق العقوبة ممن يستحق المغفرة، وبما يُصْلِحُ عِبَادَهُ ويُرَبِّيهِم، وحكيمٌ في إرجاء أمر الثلاثة بين العقوبة والتوبة.

٦. مسجد الضرار ومسجد التقوى

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾

لَمَّا فَرَغَ اللهُ تعالى من ذِكْرِ أصناف المنافقين المتخلفين عن الغزوة، أعقبهم فَرِيقًا آخر غَضِبَ الله عليهم، لسُوءِ فعلتهم، ونفَاقِ قلوبهم، وخُبْثِ مَقْصَدِهم، وهَذَا لَمَّا شَيَّدُوا مَسْجِدًا مُوَازِيًا لمسْجِدِ رَسُولِ الله ﷺ، ومبتغاهم في الظاهر الخيرُ والتوسعةُ على المسلمين، وفي الباطن الإساءَةُ للإسلام والمسلمين.

بَنَى جَمَاعَةٌ من المنافقين بقيادة أبي عامر الراهب كما تذكر الروايات، مسجدا موازيا لمسجد قباء - مسجد رسول الله ﷺ-، ليصدوا بِهِ دعوات الإسلام المُسْتَنِيرَة، فقال الله في شأنهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي ومن المنافقين المَرَدَةِ الذين هَيَّأُوا مَسْجِدًا غير شَرْعِي "ضِرَارًا"، والضِّرارُ مصدرُ ضَارَّ، وهو المبالغة في الضُّرِّ، أي إيذاء أهل مسجد قباء بإبطال مسجدهم والإنقاص من مكانته، "وَكُفْرًا" أي نَشْرَ ما يُخَالِفُ دِينَ اللهِ تَعَالَى، "وَتَفْرِيقًا بَيْنَ المُؤْمِنِينَ" زعزعةُ وَحْدَةِ المسلِمِين، وقُوَّةِ الكَلِمَةِ الوَاحِدَةِ، "وَإِرْصَادًا" تَرَقُّبًا للذي حارب اللهَ ورسولَه مع المشركين من قبلُ، والمقصود به أبو عامر الراهب الذي حارب الرسول مع الأحزاب وثقيف وهوازن، فلما هُزِمُوا فَرَّ إلى الشام يستنجد بِقَيْصَرِ الرُّومِ لِيُخْرِجَ محمَّدًا ﷺ وأصحابَهُ من المدينة، فأخذ المنافقون يترقبون مجيئه. ومن عادة المنافقين خداعُ المؤمنين بأيمانهم الكاذبة لِتُصَدَّقَ دعاويهم السَّيِّئَةُ، قال تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ وليحلفُنَّ لكم أيها المسلمون أنهم: ما أقاموا ذلك المسجد إلا توسعةً على المسلمين، وتقريبًا للبُعَدَاءِ عن مسجد قباءَ والمدينة، وغيرها من المقاصد السَّامية، ويَكْشِفُ الله خُبْثَ قُلُوبِهِم، بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ والله يعلم إنهم لكاذبون في دعاويهم، فلا تكترثوا بأيمانهم الكاذبة، إنهم لا يريدون من ذلك المسجد إلا ما أعلمكم به رَبُّكُم، من الضِّرَارِ والكفر والتَّفْرِيقِ بين المؤمنين، ومساندةِ أَعْدَاءِ الله. يَنْزِلُ الأمرُ الإلهيُّ في شأن هذا المسجد، على الرسول ﷺ بقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ لا تَطَأْ فيه قَدَمُكَ يا محمد أَبَدًا، للصلاة أو الاستطلاع أو غيره، والأَبَدُ تَعْنِي المستقبل الزمني ما دام الرسول حيا، لكي لا يضفيَ عليه شرعية دينية، والرسول قدوة للمؤمنين، وهم مَنْهِيُّونَ أيضا عن القيام فيه، وبهذا الموقف الصارم أُحْبِطَ كَيْدُ المنافقين في التفريق بين المؤمنين بأيسر أسلوب، وقد استنبط العلماء الأخيار من هذه الحادثة، أن كل ضرر على الإسلام والمسلمين وجب إزالته وإعاقته، لِوَقْفِ مُرَادِهِ، وقَرَّرُوا القاعدةَ المشْهُورَةَ: "الضَّرَرُ يُزَالُ"، ومن العِبَرِ المستفادة من الحادثة؛ أهميةُ وَحْدَةِ صَفِّ المُسْلِمِينَ وجَمْعِ شَمْلِهِم وَ أَثَرُهَا في قوة المجتمع الإسلامي، ولِذَا فَلْتَعْمَل كلُّ قيادةٍ أو جهةٍ أو مؤسَّسَةٍ أو فَرْدٍ في الواقع المعاصر على ما يجمع المسلمين لا على ما يُفَرِّقُهُم ويُشَتِّتُ أمرهم، لأن نص الآية صريحٌ وَوَاضِحٌ: ﴿...وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾، ويبين الله علة عدم القيام فيه بقوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ اللام لاَمُ ابتداءٍ وتُفِيد التَّوكيد، وليست في جواب قسم مقدر، المسجدُ الذي بُنِيَ على ركيزة التقوى من أول يوم تَشْيِيدِهِ لهو الأولى بالقيام والعمارة فيه يا محمد؛ والتقوى كلمة شاملة للجوانب التالية: إِقَامَةُ الدين على الوجه الذي يُرِيدُ مُشَرِّعُهُ، ودعوةُ الناس كافة إليه بمنهج صحيح، والقيامُ بما يسوس أمر الدنيا إلى التمكين والاستخلاف والشهود الحضاري، وبهذه الجوانب الجامعة لفريضة التقوى يتقي المجتمع المسلم عذاب الله في الدنيا والآخرة، واسمُ التَّفْضِيلِ "أَحَقُّ" مسلوبُ المُفَاضَلَةِ لأن النهي عن الصلاة في مسجد الضرار "لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا" أزال كونه حَقِيقِيًّا، وقد

اختلف المفسرون في تعيين المسجد المؤسس على التقوى من أول يوم، أهو قباء أم المسجد النبوي؟، والحق أن الآية حَدَّدَتْ وَصْفَ المسجد ولم تَذْكُرْ مسجدا مُعَيَّنًا، فيكون أَيُّ مَسْجِدٍ حاملٍ لذلك القيد فهو الأولى بالقيام، وبهذا التخريج سَتَجْمَعُ الآيةُ كُلًّا من المسجد النبوي وقباء، فأيهما عَمَرَهُ محمدٌ ﷺ أثناء دعوته للمسجد الضرار فهو أَحَقُّ وأَجْدَرُ. وتأكيدا لأولوية القيام يُضِيفُ الله ميزَةً أخرى بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ ومِنْ دواعي القيام في المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى، كونُه فيه رجالٌ يحبون أن يتطهروا، والطهارة: الإزالةُ والتَّنْقِيَةُ، واختلف المفسِّرُون في الشَّيْءِ المُطَهَّرِ أَهُوَ النجاسةُ؟ كما دل الحديثان المرويان في السنة عن الأنصاروعن أهل قباء حيث كانوا يتطهرون بالماء للصلاة، أو الشركياتُ والمعاصي وأمراضُ القلوبِ وعِلَلُ النُّفُوسِ؟، والاختيارُ الثاني ظاهرٌ عند المقابلة مع مجتمع المنافقين المتلطخين بالآثامِ والمُهْلِكَاتِ، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ والمتَطَهِّرُونَ هم الذين طَهّروا نفوسهم طهارةً معنويةً من الآثام والمخالفات، وطهارة مادية من النجاسات، يحبهم الله تعالى لِتَخَلُّقِهِم بالصفتين المَحْمُودَتَيْنِ، وسَيُجَازِي بالخيروالثواب كُلَّ مَنْ تَحَلَّى بهما. يَعْقِدُ اللهُ تعالى مُقَارَنَةً بَيْنَ مَسْجِدِ النَّبِي محمد ﷺ أو مسجد قباء وبين مسجد المنافقين الضرار، تأكيدا لعدم الصلاة فيه، وبيانا للمُفَارَقَةِ الواضحة بينهما؛ وَيَقُولُ باستفهام تَقْرِيرِيّ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ هَلْ مَنْ شَيَّدَ بُنْيَانَهُ -مسجدُ الرسول ﷺ أو قباء-، على أساس التقوى من الله وإرضائِهِ خَيْرٌ؟، أَو مَنْ أَقَامَ بُنْيَانَهُ -مسجد المنافقين- على حَرْفِ وَادٍ أو هُوَّةٍ سَحِيقَةٍ، مشرف على السُّقُوطِ لِهَشَاشَةِ أَسَاسِهِ، فَهَوَى بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ هو الأفضل؟، شَفَا بفتح الشين وبالقصر: الحَرْفُ أو الطَّرَفُ أو الحَدُّ، والجُرُفُ: ما أَكَلَ السيلُ من أَسْفَل شِقِّ الوَادِي والنَّهْرِ، وهَارٍ: اسم مشتق من هار البناء إذا تَصَدَّعَ، والانْهِيَارُ: الانْهِدَامُ. لَمَّا كان البُنْيَانُ المرصوصُ يُبْنَى على أَرض صَلْبَةٍ، شَبَّهَ التقوى -وهي مقياس قبول الأعمال عند الله- وإرضاء الله، كالأساس المتين الذي بُنِي عليه مسجدُ النَّبِي مُحَمَّدٍ ﷺ، بما يقابل أن المنافقين أَسَاسُ مَسْجِدِهِم هَشٌّ، لأنه ابتغاء الضرارالكفروالتفريق بين المؤمنين، فتكون عاقبةُ أَصْحَابِهِ بِسَبَبِ القَصْدِ المخالفِ للحَقِّ الهلاكَ في نَارِ جَهَنَّمَ، كما يُهْلِكُ البناءُ المُنْهَارُ سَاكِنَهُ، وَبالمقابلة يُفْهَمُ أَنَّ مآلَ أصحاب مسجد النبي محمد ﷺ الجَنَّةُ، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ كُلُّ من لَهُ عَلَاقَةٌ بمسجدِ الضرار من قريب أو بعيد؛ سواءً بقولٍ أو رأي أو فعل أو مساندة أو غيرها، فهو ظالم، لا يَسْلُكُ اللهُ به طريق الهداية والفلاح لأنه مُصِرٌّعلى العدوانية للإسلام والمسلمين، وهذا ترغيبٌ للمنافقين لِيَتَخَلَّوْا عن نِفَاقِهِم ويؤوبوا إلى اللهِ مُسْتَغْفِرِينَ. وَيَسْتَأْنِفُ اللهُ في تَعْدَادِ مَسَاوِئِ مَسْجِدِ المنَافِقِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ والمعنى: أن بُنْيَانَهُم الذي أقامُوهُ لقصد الإفساد في الأرض والعمل على مخالفة الله ورسوله، لا يَزَالُ في قلوبهم مُؤَجِّجًا للشُّكُوكِ والرِّيَبِ والظُّنُونِ تُجَاهَ الإِسْلَامِ وَقَضَايَاه الكُبْرَى، فبهذا يزدادون نِفَاقًا مع نفاقِهِم، "إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ" استثناءٌ تَهَكُّمِيٌّ،

أي سَيَبْقَى ذَلِكَ الرَّيْبُ يُلَازِمُهُم في قلوبهم ما دام مسْجِدُهُم مُشَيَّدا إلا أن تَتَقَطَّعَ قلوبهم منهم ولكن ما هي مُقَطَّعة، وَرَدَ في الآية "تَقَطَّعَ" على أَنَّ أَصْلَهُ "تَتَقَطَّعَ"، وَقَرَأَ الجمهورُومنهم نافع "تُقَطَّعَ" بضم التَّاء، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ شاء الله أن يحكُمَ على المنافقين بالحَسْرَةِ والخسارةِ في الدنيا والآخرة بسبب خروجهم عن هُدَاهُ وَشَرْعِهِ، لأنه عليم بشؤونهم وأحوالهم، لَمْ يُقَدِّرْذلك الجعل إلا بتدبيروحِكْمَةٍ.

٧. البيعة الرابحة مع الله تعالى، وصفة المبايعين

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾

بعد عرضٍ شاملٍ لأحوالِ المنافِقِين المتَخَلِّفِين عن الغزوة واعْتِلاَلِهِم بالأعذار، والطعن فيهم لبنائهم مسجدا موازيا لمسجد المسلمين قاصدين بذلك الضرارِوالكفروالتفريق بين المؤمنين، يَنْتَقِلُ السياقُ إلى التَّنْوِيهِ بالفَرِيق الآخر الذي قَدَّمَ أَرْوَعَ البُطُولَاتِ في سبيل إقامةِ دينِ رَبِّهِ، الغازي الخارِج مع رسول الله إلى تبوك، وليكون توطئةً لذكر توبةِ المتَخَلِّفِينَ عن الغزوةِ الصَّادِقِينَ في أيمانهم، وإغاظة للمنَافِقِين بعدم استغفار الرَّسُولِ لَهُم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ شَبَّهَ الله بَذْلَ المؤمِنِينَ أنفسَهُم وأموالَهُم في سَبِيلِ اللهِ ورجاءَ مَغْفِرَةِ ربهم وثَوَابِهِ في الجَنَّةِ بِعَقْدِ بَيْعٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المؤْمِنِينَ، وَأركانه هِيَ: المشتري: الله جَلَّ جَلَالُهُ، البائِعُ: المُؤْمِنُ، المَبِيعُ: الأنفسُ والأمْوَالُ، الثَّمَنُ: الجَنَّةُ، ولم يَقُلِ: بِالْجَنَّةِ، لأن الثمن لما كان آجلا كان هذا من جنس بيع السَّلَمِ، وبَيَّنَ الله صفة تسليم المبيع ومكانه بقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ يَتَحَقَّقُ شراء الله لأنفس المؤمنين الأتقياء وأموالهم بخوضهم في ساحة الوَغَى معارك القتال مع رسول الله ضد أعداء الله، فَيَقْتُلُونَ منهم، وَيُقْتَلُ مِنْهُمْ، ولا يعني أنّ من لم يَقْتُلْ كَافِرًا بسهمه أو سيفه لم يكن قاتلا. فَعَلَى المؤمن أن يَعْمَلَ على وَقْفِ نَفْسِهِ وَمَالِهِ في سبيل الله لينال ما ناله الرسول والذين آمنوا معه، والآية لم تُحَدِّدْ بالتخصيص في عقد البيع مع الله تعالى القِتَالَ فحسب، بل المجاهدةُ في سبيلِ اللهِ تَكْمُنُ في كُلِّ عمل صالح يُقَرِّبُ المؤمن إلى الله ويقومُ به دينُ الله تعالى في الأَرْضِ، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ أَمْرٌفي صورة الخبر، ضمانٌ من الله تعالى للمُقَاتِلِينَ أو المَقْتُولِينَ من المؤمنين إيصال الثمن -الجنة- إليهم، وهذا الوَعْدُ مُقَرَّرٌفي التوراةِ التي أنزلت على موسى، والإنجيل الذي أُنْزِلَ على عيسى عليهما السلام، والقرآن الكريم في مواضع مختلفة منه؛ كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا

وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]، ويسْتَنْكِرُالله على من يشك في صِدْقِ وَعْدِهِ، وَيُصَيِّرُهُ -أي وَعْدُ الله- كغالب وُعُودِ النَّاسِ التي لا يُراعى فيها الضبطُ والصَّرامة والوفاءُ بقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ العَهْدُ: الوعدُ بحلف، أو الوَعْدُ المُؤَكَّدُ، أَيْ: مَنِ الذي يُنْجِزُعهوده ولا يخلفها أَفْضَلَ مِنَ اللهِ؟، فلا أَحَدَ يُشَارِكُهُ في تمام صِدْقِهِ وَتَحْقِيقِ مَا يَعِدُ بِهِ، ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ فإذا كان وَعْدُ الله حَقًّا ولا أوفى بعهده من الله، فافرحوا بثمن بيعكم الذي بايعتم به، وهو نجاتُكُم من النار الأليمَةِ ودُخُول جَنَّةٍ عَرْضُهَا السماواتُ والأَرْضُ، وقد جاءت الصفقة مضافة إليهم -بِبَيْعِكُمْ- إظهارا لمزيدٍ من السُّرُورِ والغبطة، ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لا فوز أعظم من النجاة من النار والدخول إلى الجنان، فاسعوا إلى ذلك الفوز الحقيقي وقدموه على انتصاراتكم ونجاحاتكم الدنيوية.

ثم يشرعُ اللهُ في بيان أوصاف المؤمنين ذُكورًا و إِنَاثًا ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾، بصيغةِ أسماءِ الفاعلين (التائبون، العابدون، الحامدون.....)، والأصلُ فيهَا الجَرُّ، ولكن جاءت مُنْقَطِعَةً عن الوصفية، لتكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديرهُ: ضميرُ الجمع (هم)، اهتماما بهذه الأوصاف العالية، والسمات العظيمة، التي تنم عن صدق إيمانهم وتقواهم لربّهم، والتوبةُ أَوَّلُ صفةٍ ابتدئ بها؛ لأهميتها في قبول الله الصفات التي بعدها، ولخُطُورَةِ انْعِدَامِهَا على الإنسان في اليوم الآخر، قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ﴾ هُمْ المعترفون بذنوبهم، النادمون عليها، المستغفرون لربهم، المقلعون عنها، المصلحون ما أفسدته خطاياهم وذلك برد المظالم والتنصل من التبعات وغيرها، المُتْبِعُونَ تَوْبَتَهُمْ إيمانًا راسخًا وهدايةً راشدةً وعملاً صالحًا، ﴿الْعَابِدُونَ﴾ الذين أخضعوا نُفُوسَهُم لله تعالى وحدهُ لا شريكَ له، مُعَاهِدِينَ إياهُ -جَلَّ جَلَالُهُ- على السَّمْعِ والطَّاعَةِ في كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ من حَيَاتِهِمْ، لا يَنْقُضُون ميثاقهم مع الله بطاعة إنسان أو شيطان أو هوى في معصية الخالق، فإن اقترفوا شيئا من ذلك، سارعوا إليه تائبين غير مُصِرّينَ، ﴿الْحَامِدُونَ﴾ الراضون بِمُطْلَقِ قَدَرِ اللهِ في حَيَاتِهِم، من سَرَّاءٍ وَضَرَّاءٍ، أصابت نفوسَهم وأموالَهُم وممتلكاتِهم، الشاكرون لِنِعَمِهِ بتوظيفها في عبادة الله، ﴿السَّائِحُونَ﴾ السياحةُ: السَّيْرُ في الأرضِ، أي السائِرُون في الأرض لمقصد شرعي مطلوب كهجرةٍ إلى الله بعد استضْعَاف، أو جهادٍ في سبيل الله، أو طلب علم نافع، أو رزق حلال، أو تَأَمُّلٍ في ملكوت الله، أو استفادةٍ من خبراتٍ وتجاربَ معينة، وقيل: السائحون هم الصائمون، وهو قول أبي هريرة و ابن مسعود وغيرهما من سلف الأمة، ولكنَّ الأَخْذَ بالأعَمِّ أَوْلَى، ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ الذين يقومون لربهم راكعين ساجدين خمسَ صَلَوَاتٍ في اليوم، ويَتَطَوَّعُونَ بصلوات نَافِلَةٍ آناء الليل والنهار؛ لمَزيدِ إِرْضَاءٍ لربهم وشُكْرٍ لِنِعَمِهِ العَظِيمَةِ، ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الحَاثُّونَ غيرهم على الأَمْرِ الحسن الذي يقوم به الدين والدنيا، المُصْلِحُونَ مجتمعاتهم بالسعي إلى وَأْدِ المنكرات التي تُهَدِّمُ دينهم ودنياهم، المُتَّخِذُونَ في ذلك أفضل المناهج الدعوية

الصحيحة الفعالة، للتَّوَخِّي مِنْ كِلَا الفَرِيضَتَيْنِ التَّأْثِيرَ الإِيجَابِيَّ السَّلِيمَ، والتَّغْيِيرَ البِنَائِيَّ الرَّشِيدَ، والواو في "وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ" هي واو العطف، لتناسب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتلازمهما، وكل منهما مُؤَدّ إلى الآخر، فالآمر ناه، والناهي آمر، ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ صفةٌ جَامِعَةٌ لكل الأوصَافِ المُتَقَدِّمَةِ، وهي عَطْفُ العَامِّ عَلى الخَاصِّ، فمن تحلى بهذه الصِّفَةِ فقد جسد كل الأوصاف السابقة، أو هي: صِفَةٌ حَاوِيَةٌ للأوامر والنواهي الشرعية التي لم تُذْكَرْ من قَبْلُ، وحقيقةُ الحِفْظِ: اسْتِبْقَاءُ الشيء في مكانه ورعايتُه خشيةَ ضَيَاعِهِ، وأطلق مجازا شائعا على ملازمة العمل بما يُؤْمَرُ بِهِ المؤمن على نَحْوِ مَا أَمَرَ بِهِ الله ﷻ، وهو المراد هنا، وفي الآية: الذين لا يَتَجَاوَزُونَ أي حَدٍّ من حُدُودِ اللهِ المرسُومَةِ لهم، فالتكاليفُ الشرعية كلها حدود؛ كالصلاة والميراث وبِرّ الوالدين والوفاء بالوعد وغيرها، والمعاصي كلها حدود، فَحَقُّ الأُولَى تَأْدِيَتُهَا، والثَّانِيَةُ تَرْكُهَا، وأَمَّا الوَاوُ العَاطِفَةُ في "وَالْحَافِظُونَ ..." هي واوُ الثمانية، لأنه جُعِلَ الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر قسما واحدا، وهي شائعةٌ في مواضعَ من القرآن الكريم، وقد ذاع لدى العرب لما يَبدَؤُون العَدَّ من الأوَّلِ ... ويصلون إلى المعدود الثامن فيسبقونه بواو، ويُكْمِلُونَ عَدَّهُم بدون واو، ومثل هذا في قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ ... وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم : ٥]، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بَشِّرْ يا محمد المؤمنين الكُمَّلَ المعاهِدِينَ ربهم ببيع أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، المتصفين بالصفات المذكورة سالفا، بالحياة الطيبة في الدنيا، والفوز بالجنة في الآخرة.

٨. النهي عن الاستغفار للمشركين

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(١١٦)﴾

بعد أن ذكر الله الواجبات الشرعية على المؤمن كالتوبة والعبادة ... وغيرها، وخَتَمَهَا بالوَاجِبِ الشامل لها، المتمثل في حفظ حدود الله كلها، تَطَرَّقَ إلى بيانِ أمر من حدوده وشرعه، يَتَعَلَّقُ بِمسألة الولاية والبراءة، وكيفية تعامل المؤمن مع من حوله من أقرباء وجوار مشركين.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ما كان ينبغي لأَيِّ نَبِي -أل: للجنس- ولا لأي مؤمن كامل الإيمان أن يَطْلُبَ من الله المَغْفِرَةَ للمشركين مُطلقا، استحقاقا للجَنَّةَ، بعدما تبين لهم أنهم مُشْرِكُونَ مستحقون تصليةَ الجحيم، والتَّبَيُّنُ

يكون بالوحي كأبي لهب في سورة المسد، أو بموتهم وهم أَعْدَاءُ الله، ويأتي مباشرة تفنيد ما قد يرِد في الأذهان من استغفار إبراهيم لأبيه المشرك، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الممتحنة : ٤] أو قوله تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء : ٨٦]، بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وَعَدَ إبراهيمُ أَبَاهُ آزَرَ حينما رَجا فيه الإيمانَ بالاستغفار له وتوفيقه إلى الإيمان، وهذا في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم : ٤٧]، فَحَقَّقَ إبراهيم موعدته التي وعدها أباه، ولكنه أعرض عن الاستمرار في طَلَبِ المَغْفِرَةِ لَهُ لما تَقَرَّرَ عنده أَنَّهُ كَافِرٌ بالله غَيْرُ مُرِيدٍ الإيمانَ بِرَبِّ السموات والأرض، وَتَبَرَّأَ مِنْهُ، والتَّبَرُّؤُ: التَّنَزُّهُ عن الشيء، وهنا: كُرْهُ الفعل المذموم وفاعلِه وبغضُه وتَرْكُ الاستغفار له، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ يؤكد الله لنا في شخص إبراهيم عليه السلام صفتين عاليتين: التَّأَوُّهُ، والحِلْمُ، فالأولى هي الرأفة والرقة والتَّضَرُّعُ، والثانية: تَحَمُّلُ الأَذَى وعدم العُدْوَان، ومُرَادُ الصفتين: أنه لفرط رحمته ورقته وحلمه عليه السلام كان يَتَعَطَّفُ على أَبِيهِ الكَافِرِ ويستغفر له، مع فظاظته وقسوته عليه وقَوْلِهِ لَأَرْجُمَنَّكَ، فالمؤمن الحق من طبعه الشفقة على الإنسان العاصي والكافر، والأخذ بيده إلى ساحةِ النَّجَاةِ، والرسول لم يكن يوما لَعَّانًا ولا شَتَّامًا ولا قَاسِيَ النَّفْسِ على الكفار والمشركين والعصاة – في غير حال الحرب-، بل كان خائفا عليهم، عطوفا بهم، آملا فيهم الإيمان والتوبة، مجسدا لقوله تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف : ٥٩]. قد يخافُ المرءُ المؤمنُ ويتحرج في نفسه من استغفاره لأقربائه من المشركين قبل نزول هذه الآيات القطعيات، التي تعلن التبرؤ من المشركين ولو كانوا أولي قربى، فدفع الله هذا الخوف والحرج بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ وليس من سنن الله تعالى في خلقه، ولا من حكمته البديعة أن يَنْسِبَ قوما إلى الضلال والزيغ عن الهدى بعد أن هداهم إلى الإيمان، حتى يُعَلِّمَهُم المأمورات والمحذورات الواجب اتقاؤها، فإن خالفوها وقصروا في تأديتها أضلهم ضلالا بعيدا، إِذًا فحجة الله على عباده هي تعاليمُ وَحْيِهِ، ولا قيامَ للحُجَّةِ قبل تعليم الله وبيانه للبشرية، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إن علم الله يتعلق بأي شيء في الوجود، ومن تَعَلُّقَاتِهِ عِلْمُهُ بجميع المستغفرين لأقربائهم قبل نزول هذه الآية، وعالم بالمتعدي بعد نزول الآية، وعالم بما أَمَرَكُمْ بِهِ وَمَالَمْ يَأْمُرْكُم بِهِ.

لَمَّا تَنْقَطِعُ صلة المؤمنين بالكفار عامة والأقربين خاصة بالبراءة وترك الاستغْفَارِ لهم، قد يتخوف المؤمنون من إضرار الكافرين والبغي عليهم، فَطمأنهم بذكر شَيْءٍ مِنْ عَظَمَتِهِ وَنُصْرَتِهِ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ إِنَّ رَبَّكُم الآمرَ بالتبرؤ من الكفار وترك الاستغفار لهم، مالكٌ لِأَمْرِ السَّموات والأرضِ ومُدَبِّرٌ لِشَأْنِهِمَا، وله القدرة على الإحياء والإماتة، فقد أحياكم بعد موتكم الأول -

العدم-، وأماتكم بعد انقضاء عمركم في حياتكم الدنيوية، وسَيُحْيِيكُم مَرَّةً ثَانِيَةً ليومِ الحِسَابِ، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ولن تجدوا في الدنيا والآخرة وَلِيًّا وَلَا نَاصِرًا إلا رَبَّكُم الذي خلقكم ورزقكم، فأطيعوا أمره لِتَحْظَوْا بِوَلَايَتِهِ وَنُصْرَتِهِ، وَالوَلِيُّ: القَرِيبُ والحَلِيفُ، وَالنَّصِيرُ كُلُّ مَنْ يُعِينُ أَحَدًا عَلَى مَنْ يُرِيدُ بِهِ ضُرًّا.

٩. توبة الله على المؤمنين المجاهدين، وقصة الثلاثة الذين خلفوا

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾

بعد علمنا بإذن الرسول ﷺ للمنافقين بالتَّخَلُّفِ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾، والفريق من المهاجرين والأنصار الذي كاد أن يتخلف عن رسول الله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾، والثلاثة الذين تخلفوا ولم يسارعوا إلى رسول الله بالتوبة بعد رجوعه من الغزوة: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾، جاءت إليهم هذه الآيات حاملةً توبةَ الله عليهم، لتعفوَ عنهم وتغفر لهم زلاتهم التي وقعوا فيها.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ﴾ افتتحت بحرف التحقيق تأكيدا لمضمونها، وتوبة الله هي غفره السيئات والتقصيرات، والمعنى: قَبِلَ اللهُ تَوْبَةَ النَّبِي والمهاجرين والأنصار الذين استغفروا لعملهم الصالح -الجهاد في سبيل الله- خشية التقصير في أمر الله أو وقوع خطإ طفيف، وقد صدر من النَّبي إذنه للمنافقين ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾، ومن بعض المهاجرين والأنصار شيء من العجز والتثاقل حين أمرهم النبي بالخروج، وقد قال الله فيهم: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ﴾، أي أَوْشَكَتْ قُلُوبُ فَرِيقٍ منهم أن تزيغ عن الهداية بسبب التخلف عن الغزوة، ولكنهم لم يتخلفوا، وقرأ الجمهور"تَزِيغُ" بالتاء، وحمزة وحفص عن عاصم "يَزِيغُ"، والزَّيْغُ: الميل عن الطريق المقصود، والساعة: الحصة من الزمن، العُسْرَةُ: اسم العسر، زيدت فيه التاء للمبالغة وهي الشِّدَّةُ، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ وليس تكريرا مَحْضًا، فالتوبة الأولى ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ...﴾ ذُكِرَت تطييبا لقلوبهم واطمئنانا، ثم ذكر الذنب وأردفه التوبة مرة أخرى تعظيما لهم وتصريحا بالتوبة عن ذنبهم، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ عَفَا اللهُ عنْهُم لأنه بهم رؤوف رحيم، والفَرْقُ بين الر أفة والرحمة، أَنَّ الرَّ أْفَةَ: هي الرحمةُ الخَاصَّةُ؛ وهي دَفْعُ المَكْرُوهِ وَإِزَالَةُ الضُّرِّكقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَ أْفَةٌ فِي دِينِ

اللَّهِ﴾ [النور: ٢]، وأما الرحمةُ فاسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ويدخل فيه الإفضال والإنعام، ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ الجملة عطف على قوله: "عَلَى النَّبِيِّ"، وكَأَنَّهُ قال: لقد تاب الله على النَّبِي والمهاجرين والأنصار وعلى الثلاثة، والثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وَخُلِّفُوا: لا يَعْنِي خَلَّفَوا أَنْفُسَهُم عن الغَزْوِ، بل الذين خُلِّفُوا عن القضاء في شأنهم فلم يعذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أيسهم من التوبة كما أيس المنافقين، وهذا يَتَنَاسَبُ مَعَ الغَايَةِ المذْكُورَةِ: "حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ..."، أي لإرْجائهم في أَمْرِهِم بَلَغَ بِهِم الأَمْرُ إلى شعورهم بأن الأرض ضاقت عليهم، رغم رحابتها وسعتها لجميع الخلق، وضاقت عليهم نُفُوسُهُم نتيجةَ الهم والغم والحزن ومفارقة الأصحاب، ومخافة مآلهم، ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْه﴾ والظن هنا: العلم واليقين الجازم، أي واعتقدوا من صميم أفئدتهم أنه لا ملاذ ولا مفر من عقاب الله وغضبه إلا بالرجوع إليه تائبين مستغفرين، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ "ثُمَّ" للإمهال والتأخير، وبعد زَمَنٍ مُعَيَّنٍ أنزل الله قبول توبتهم، ليتوبوا إليه، أي ليرجعوا إليه مستغفرين عن تقصيرهم، ناوين استدراك ما فاتهم من الخيرات، مصلحين ما أفسدوه بالاهتداء واكتساب الأعمال الصالحة، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يَقْبَلُ الله توبةَ عبدهِ مادام رجع إليه مستغفرا لذُنُوبِهِ، مُسْتَشْعِرًا تَقْصِيرَهُ، ورحيمٌ بالإنسان لِيَقِيَهُ في الدنيا واليوم الآخر-بسبب توبته وخضوعه- ما تخلفه المعاصي والآثام من شرورومصائب، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا التذييل جاء كخاتمة بعد ذِكْرِ الفِرَقِ الثَّلاَثَةِ: الفريقُ الأولُ: المنافقون الكذبة الذين اختلقوا الأعذار الواهية، الفريق الثاني: المعترفون بذنوبهم الصادقون في توبتهم، الفريق الثالث: الثلاثة الذين تاب الله عليهم بعد مدة زمنية لندمهم الشديد و إقرارهم بتقصيرهم، وهو أمر للمؤمنين بتقوى الله وملازمة تكاليفه وشرائعه ليحصلوا على وسام العبادة والربانية، وربط علاقاتهم بالمؤمنين الصادقين في عبادتهم، كأمثال إخوانهم التائبين المتخلفين عن غزوة تبوك، والحَذَرِ من كَيْدِ المُنَافِقِينَ الأعداء، لأن التحام الصادقين ببعضهم يُعَدُّ حاجزا منيعا لكيد الكاذبين الكافرين، وقد تكون الآيةُ أمراً للمُؤْمِنِينَ بمخالطة الثلاثة ومعاشرتهم لصدق توبتهم -كعب بن مالك، هلال بن أمية، مرارة بن الربيع- بعد أن اعتزلوهم لمدة خمسين يوما أو أكثر.

١٠. الأمر بالاستجابة لله وللرسول، وثواب المستجيبين

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)﴾

جملة من الآيات تخاطب مشاعرَ المؤمنين، وتحثهم على وجوب الجهاد في سبيل الله، وتُغْرِيهِم بما يَكْتَنِزُهُ من عَظَائِمِ الأجور والحسنات، وتُهَيِّجُ عزائِمَهُم القويةَ لتقديم الأفضل والأحسن في سبيل قيام دين الإسلام.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ صيغةُ "مَا كَانَ..."، تُفِيدَ أن الأصل فيهم إرادةُ الخُرُوجِ مَعَ رسولِ اللهِ إِذَا أَمَرَهُمْ، وهم براء من التَّخَلُّفِ، وفي هذا تعزيز لإرادات المسلمين وتقويةٌ لهمهم لكيلا يَفْتُرُوا، أي ما كان ينبغي لأهل المدينة ومن حولهم من أعراب البادية أن يتخلفوا عن رسول الله في الغزوات، ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ الرغبة تتعدى بـ: (فِي) وهي الإقبال والحرص على شيء، أو بـ: (عَنْ) وهي المجافاة والكره وعدم الميلان، وأريد برغبة أنفسهم عن نفسه محبتُهم أنفسهم وحرصهم على سلامتها دون الحرص على سلامة نفس الرسول، وكأنه قيل: لا يجعلوا أَنفسهم راغبة عنه -الرسول ﷺ-، والمعنى: ليس لكم أن تتخلفَوا لِتَقُوا أَنفُسَكُم من أذى الغزوات، وتَرْضَوا بإيذاء الرسول، فلا تكرهوا الذي قد رضيه الرسول لنفسه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ "ذَلِكَ" إشارةٌ إلى النَّهْيِ عَنِ التَّخَلُّفِ، والمعنى: نَهَاهُم عن التَّخَلُّفِ بِسَبَبِ أنهم لا يَمَسُّهُم ظَمَأٌ: العَطَشُ، ولا نَصَبٌ: التَّعَبُ، ولا مَخْمَصَةٌ: الجوعُ، في سبيل جهاد الكفار، ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ والوطءُ: الدَّوْسُ بِالأَرْجُلِ، والموطئ: مكان الوطء ولا يَدُوسُونَ مَوْضِعا من مواضعِ أرضِ العَدُوِّ بحو افر خيلهم وأخفاف إِبِلِهِم وأَرْجُلِهِم يُنَغِّصُ الكُفَّارَ، لأن الكافر يغتاظ من الأرض الموطوءة من قِبل المسْلِمِينَ قَبْلَ أَنْ يَطَأَهَا، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾ والنَّيْلُ من العَدُوِّ: إِصَابَتُهُ بِرَزِيَّةٍ، أَيْ ولا يُصِيبُونَ العَدُوَّ بِبَلِيَّةٍ؛ كالأسْرِ والقَتْلِ والغنم، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ كُلُّ ما يُصِيبُ المؤمنين من ظمأٍ ونَصَبٍ ومَخْمَصَةٍ في سبيل الله، وفعلُ وَطْئِهِمْ، ونيلهم من عَدُوِّهِمْ، يُكْتَبُ لهم في صحائفهم -بِشَرْطِ حصول التقوى، لأن الله يتقبل من المتقين- به ثواب صالحٌ، يستحقون به ثوابَ اللهِ وخيراتِهِ في الدنيا والآخِرَةِ، وهذا ترغيبٌ للجهاد في سبيل الله بمختلف أنواعه -لا القتال فقط- كالعمل الخيري في المجتمعات، والتعليم، والرباط في ثغور المناصب التي تقوم بها الدنيا وغيرها، وأن كل ما يتلقاه الإنسان من متاعبَ وأَزَمَاتٍ ونكبات ومعوقات في سبيل الله، مكتوبٌ في صحيفته على شكل حسناتٍ، سيفرح بها في اليوم الآخر لما يقرأ كتابه، وقوله: عمل صالح معناه ثواب صالح ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إن الله حافظ غير مُضَيِّعٍ ما يكتسبه المحسِنُ من أجور، فَلَا يَدَعُ لَهُ عملاً صالحًا إلا كَافَأَهُ بِهِ، والمحسنُ كُلُّ مُقَدِّمٍ نَفْسَهُ وَمَالَهُ في سبيل اللهِ.

يعود بنا القرآن إلى ذكر الأعمال التفصيلية للمجاهد في سبيل الله، إشعارا بأن كل دقيقةٍ وجليلةٍ سَيُجَازِيهِ بها الله ﷻ، ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ وما من نَفَقَةٍ جَادَتْ بها نفوسهم في سبيل الله، سواء كانت صغيرةً أو كبيرةً، وما من وادٍ اجْتَازُوهُ ابتغاء وجه الله، إلا

كُتِبَ لهم عملٌ صالحٌ أيضا، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كَتَبَ الله للمؤمنين تلك الأعمالَ صالحةً، ليثيبهم عليها بأحسن الجَزَاءَ في الدنيا والآخرة، وقد يكون "أَحْسَنَ" متعلقا بالعمل، فيؤول إلى مجازاتهم لأنهم قدموا أَحْسَنَ الأعمالِ.

١١. الأمر بالنفير لطلب العلم على الكفاية، وبيان أساليب حربية

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)﴾

بعد أن حذر الله تعالى المؤمنين من التخلف عن الجهاد، والتخلي عن رسول الله وعدم مصاحبته، وأخبرهم بفضل المجاهدة في سبيل الله وثوابها العظيم، أعلمهم بما يقيد النَّفِيرَ العام للغزو، وهو نفور طائفة من المسلمين إلى التَّفَقُّهِ في الدِّينِ، لأن حَظَّ التَّعَلُّمِ والغَزْوِ كليهما في مرتبة واحدة، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ وما كان ينبغي للمؤمنين أن ينفروا كافَّةً إلى الغَزْوِ مع رسولِ اللهِ، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ "لَوْلَا" حرف تحضيض، الفِرْقَةُ: الجماعةُ من الناس الذين تفرقوا عن غيرهم في المواطن؛ فالقبيلة فرقة، وأهل البلاد الواحدة فرقة، والطَّائِفَةُ: الجماعةُ ولا تَتَقَيَّدُ بِعَدَدٍ، التَّفَقُّهُ: تكلف الفقاهة، وهي مشتقة من فَقِهَ: إذا فَهِمَ ما يخفى فهمه، وهو أَعَمُّ من العِلْم، والدِّينُ: ما يشمل العقيدة والعبادات والأخلاق، والمعنى: فهلا خرج طائفةٌ مِنَ النَّاسِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ، ليتفرغوا لدراسة قضايا الدين، واختيار أشخاصهم ومقدار عددهم، مسؤولية أولي الأمر في كل مجتمع، والرسالة من هذا الطلب الإلهي: عدم توقف حركة طلب العلم لأجل الغزو، ولأن مَهَمَّةَ فقه الدين والدعوة إلى الله شَاقَّةٌ كالجهاد في سبيل الله، فضلا على أنها مسؤولية كبرى على الأمة، وأَنَّ العلم بكافة أنواعه لهو الطريق المؤدي إلى الاستخلاف والتمكين في الأرض، وبه تقوى الأمة الإسلامية على سائر الأمم، وهكذا نجد أن الإسلام يَعُدّ طلب العلم كالجهاد في سبيل الله، فلا إفراط ولا تفريط. وإذا كان التفقه في الدين طلبا للرسوخ فيه، فهو أيضا لتبليغه لكافة الناس، قيامًا للحُجَّةِ وتبرئة للذمة، ومن هنا جاء الأمر للعلماء المشتغلين بأمر الدين بقوله: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وليبلغوا لأقوامهم الراجعين من الغزوة ما حصلوه من قضايا الدين على طريقة الإنذار لا التبشير، لأنهم كانوا متفرغين للقتال ومراقبة الثغور، ولا حَظَّ لهم معتبر من الموعظة والتذكرة، والإنذار: الإشعار بالخطورة، وأَيُّ خُطُورَةٍ في الدين أكبر من معصية الله وعذابه في الدنيا والآخرة؟ أي ليُعْلِمُوهُم بما وجب على المؤمن تَجَنُّبَهُ، ليتَنَبّهوا إلى حدود دين الله ولا يتجاوزوها.

بعد نداء الله تعالى المؤمنين بقتال الكفار والمشركين كما يقاتلونهم كافة، بين لهم بعض المنهجيات القتالية الضرورية، ومنها المنهجية التالية: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ نداء للمؤمنين للعمل بقاعدة من قواعد القتال، وهي البدء بمقاتلة الكُفَّارِ الذين يدنون منهم، ثم الذين يلونهم وهكذا، دون الإخلال بترتيب الخطوات والمراحل، وفي ذلك أمانٌ وحَصَانَةٌ للدعوة الإسلامية من الاندثار، والأمرُ بالقتال للكفار في الآية ليس ابتداء، بل هو بعد محاولات قتال الكفار للمسلمين، أو منع المسلمين من تبليغ دينهم ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وليتلمسوا حين مقاتلكم لهم شدة وخشونة، والمقصد من ذلك إلقاء الرعب في قلوب الأعداء حتى يخشوا عاقبة التصدي لقتال المسلمين، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ولا تتناسوا أيها المؤمنون أن المتقين تصحبهم معية الله تعالى بالنصرة والتأييد والتوفيق، فلا تتركوا المأمورات الإلهية ومنها عملكم بالقاعدة المذكورة، فتتخلف معيته عنكم فتصبحوا خاسرين.

١٢. استهزاء المنافقين بهدي القرآن، وصرف قلوبهم عن الإيمان

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧)﴾

بعد أن نشرت في هذه السورة المباركة (التوبة) فضائح المنافقين، وأعمالهم السّلبية، في أكثر من موضع، جاءت خاتمة السورة لتكشف أشد مخازيهم و أقواها؛ الاستهزاءَ بالقرآن الكريم و أثرِهِ في نفوس المؤمنين.

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ ورود "ما" بعد "إذا" للتأكيد، جيء بها للإشارة إلى أخطر ما يقترفه المنافقون حين نزول القرآن الكريم، فما إن تنزل جملة من الآيات على رسول الله -ولا يراد بالسورة هنا السورة التامة-، تشتمل على المواعظ والمأمورات والمنهيات والقوانين الزاجرة والغيبيات والوعد والوعيد وغيرها، يستهزئ جماعة من المنافقين بقولهم: من منكم زادته هذه السورة إيمانا؟ لأنهم عارفون بمسألة زيادة الإيمان بالقرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، ومقصدهم السخرية والاحتقار من شأن القرآن الكريم و انتفاء زيادة الإيمان به، ثم يأتي تفريعٌ من الله يبين أصناف الناس تجاه الموعظة القرآنية، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ فأما المؤمنون الخُلَّصُ فينتفعون بالآيات وترسخ إيمانهم في قلوبهم، وتنميه بالدلائل والإشارات والبراهين، ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ السين والتاء للتأكيد وليس للطلب، أي تَتَمَكَّنُ البِشَارَةُ والفَرَحُ منهم عند نزول الآيات، لإيقانهم بما عَرَفُوهُ من قَبْلُ، وبما ينتظرهم من مسرات الدنيا والآخرة حال تقواهم، ﴿وَأَمَّا

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ وأما الذين في قلوبهم أمراض النفاق وفيروسات المعاصي والموبقات، ولم يريدوا اقتفاء طريق الهداية، زادتهم رجسا إلى رجسهم، والرجس: النجاسة المادية، وتطلق على اللوثات الاعتقادية، كالكفر والإشراك والنفاق وغير ذلك من التصورات الخاطئة المخالفة للوحي القرآني، أي أضلتهم الآيات مع ضلالهم ضلالا بعيدا، ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وأدت بهم تلك الأرجاس إلى موتهم دون توبة خالصة، فماتوا مصرين على المعاصي والمهلكات، غير مستسلمين للذي خلقهم، ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ ألم ير هؤلاء المستهزئون بالقرآن الكريم أن الله يختبرهم الله بالمصائب والآلام والفتن مرةً أو مرتين في كل عام، ليتعظوا ويعودوا عن غَيِّهم!، ولكِنَّ حالهم ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لا يتوبون عن معاصيهم ونفاقهم، ولا ينتهون أصلا لما يُصِيبُهُم، لاعتيادهم ذلك من دُرُوبِ الدَّهْرِ، ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ وإذا نزلت جملة آياتٍ فاضحات للمنافقين وهم في حضرة النبي ﷺ، تبادلوا النظرات فيما بينهم بالاستهزاء والسخرية والاحتقار، وتساءلوا قائلين: هل رآكم الرسول أو المؤمنون في خلواتكم ليكشفوا أمركم؟ وهم بذلك يستبعدون إمكانية كشف الرسول ﷺ فضائحهم، ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ثم يخرجون من مجلس الرسول محمد ﷺ ولم ينزجروا بما فُضِحُوا به، فيجازيهم الله بصرف قلوبهم عن الحق، وإيلاجها في الباطل، لأنهم قوم غير مُعمِلي عقولهم، فالمتفقه هو الذي يدرك قيمة فلاحه في الدنيا والآخرة ويعمل من أجلها، لا بمناقضتها.

١٣. رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم وحرصه على أمته

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾

لما احتوت سورةُ التوبة على تكاليف إلهية شاقَّةٍ، ميزت المؤمن التقي من المنافق الكاذب، جاءت هذه الآيات مسهلة تجسيد هذه المأمورات، بإبراز شخصية الرسول القائد محمد ﷺ، فإن أمركم بما هو صعب وشاق عليكم فتحملوه فهو كالطبيب لا يريد لكم إلا الخير الدنيوي والأخروي.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ لقد مَنَّ الله عليكم ببعث الرسول محمد ﷺ من بَنِي جلدتكم، تعرفونه وجميل أخلاقه وسماته، فقبولكم له أولى من شخص ليس منكم، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ شديد عليه ما شَقَّ عليكم من التكاليف والهموم الدنيوية والمصائب وغيرها، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ والحرص: شدة الرغبة في الشيء، مُهْتَمٌّ بأموركم وصلاحها سواء الدنيوية أو الأخروية، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الرأفة: رقةٌ تنشأُ عند حدوث ضر بالمرءوف به، الرحمة: رقة تقتضي الإحسان للمرحوم، فالرأفة خصوص الرحمة،

فالصفتان تميزبهما الرسول محمد ﷺ تجاه المؤمنين الأتقياء، وأما الرحمة العامة للناس في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فهي مشوبة بشدة وغلظة؛ فلا يقال رؤوف رحيم بهم، وإنما رائف وراحم، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فإن أعرضوا عنك ولم يؤمنوا بك، ولم تستَمِلْهم صفاتك العليا الحميدة، فقل لهم: الله حسبي وكافيني، يتولى أمْرَكُم ويكفيني شَرَّكُم، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق سواه، فلا أعبد ما تدعونني إليه، لكم دينكم ولي ديني، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ إليه أفوض أمر ديني ودنياي وأموري كلها، فهو الناصر والمتولي، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ تعليل الاتكال على الله، فإذا كان ربا للمخلوق العظيم، فمن باب أولى كفيل بالذي دونه. وبما أنه سبحانه رب العرش فهو تعالى مستغنٍ عن العرش فلا يليق أن يقال باستقراره على العرش استقرار حقيقيا بالجلوس عليه؛ لأن ذلك يقتضي حاجة الخالق للمخلوق، تعالى الله عن ذلك.

تمّ بحمدِ الله تفسير سورةِ التوبة وتليها سورةُ يونس عليه السلام.

سورة يونس

سورةُ يونسَ مكيَّة، وعددُ آياتها مئة وتسعُ آيات، ومن مقاصدِها إبطالُ أصول الشرك التي كان المشركون يتمسكون بها في عهدِ النُّبوّة كنَفْي الألوهيةِ المطلقةِ عن الله ﷻ، والتَّشْكيك في نُبُوَّة محمدٍ ﷺ ورسالتِه، ونفْيِ البعثِ والحشْرِ والجزَاءِ. وقدْ اعتمدَت في ذلك على تعْجِيزِ المشْرِكين عنِ الإتيَان بمثْل هذَا القُرآن، وتوْجِيهِهم إلى النَّظرِ في الخلقِ، وتحْذِيرِهم من عذاب الدُّنيا والآخرة، وتذكيرِهم بعاقبةِ المكذِّبين من الأمَم السَّالفة، وغيرِها من الأساليبِ التي سنتعرَّض لها بحولِ اللهِ تعَالى.

١٤. تعجب الكفار من نزول الوحي، ووصفهم له بالسحر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢)﴾

﴿الر﴾ ابتدأت السُّورة بالأحرف المقطّعة، وفيها تنبيهٌ إلى أنَّ هذا الكلامَ المعجِزَ مؤلَّفٌ من جنس الحروف التي يتكوَّن منهَا كلامُكم، ومما يؤكد ذلك إتيان ذكر القرآن الكريم بَعد هذه الحروف، ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى ما سيأتي من آيات السُّورة أو إشارةٌ إلى عُمومِ الآيات القُرآنيَة؛ باعتبارِ حضورِها في أذهان الناس، ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ آيات القرآن الكريم ذي الحكمةِ والحقّ المبين، لاشتماله عليها، والحكمةُ وضعُ الأشياءِ في مواضعِها اللائقَةِ، ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ أكان إنزالُ

الوحْي على رجلٍ من قريش محَلَّ تعجبِهم! والاستفهام هنا سواء بالهمزة أم بغيرها من الحروف إشارةٌ إلى بُطلانِ تعجُّبِهم، ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ جملةٌ تفسِيريَة لـ"أَوْحَيْنَا" وهي تختصر ما جاء به الوحي الذي أُنزل على الرَّسول ﷺ، وتعني إنذارَ الناس، وتَبشيرَ ذَوي الإيمان بالخيْروالفَضْل والمنزلةِ الرَّفِيعَة عندَ ربِّهم، ومعنى قدم صدق: سابقة ومنزلة رفيعة، سميت قدَماً لأن السبق إلى الشيء يكون بها، كما سميت النعمة يداً لأنها تُعْطى باليد، وأضيفت إلى الصدق لتحققها وللتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية[٢]، ويراد به في الآية: العمل الذي قدموه في الدنيا يكون لهم ثوابا في الآخرة، ومعنى أنذر: خوف، ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ جوابٌ من المُكَذِّبين بأنَّ هذَا الرَّجُل -أو ما جاءَ به من الوَحْي- سِحْرٌواضِح ظَاهِر؛ لما رَأوا من تَأثِيره في النُّفُوس.

١٥. دلائل وحدانية الله وقدرته

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ(٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)﴾

شرع الله تعالى في بناءِ الإيمَان بأوَّل الأصولِ التي جاءَ بها الوَحي، وهو توحيدُ الله تعالى في قُدرَته وسلطَانه وتدْبيرِه وعبادتِه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إنّ مالك أمركُم ومدبّره هو الذي أوجد السماوات والأرض بتقديروحكمةٍ، وتحديدُ ذلك بستّة أيَّام غيبٌ، لأن ستة الأيام التي خلق فيها السموات والأرض لا يلزم أن تكون كأيامنا نحن المتكونة من أربع وعشرين ساعة، والحكمةُ منه بيانُ مشيئةِ الله تعالى المُطلقة، وتقديره في الخلق، وكذا تَنْزيهُه عن الصُّدفة، ولو شاء الله تعالى لخلقهُنَّ في لمح البصر، ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ الاستواءُ على العرش: التَّصرّف المطلقُ في الملكِ والسَّيطرةُ عليه، و "ثُمَّ" هنا ليسَت للتَّراخِي الزمَاني؛ لأنّ الله غَنيٌّ عن الأمْكِنة والأزمِنَة وغنِيٌّ عن تغيُّر أحوالِه وهيئاتِه، فهِي للْبُعدِ المعْنَوي وليسَ الحسيّ، أي والأهم من خلق السموات والأرض استواؤه سبحانه على العرش بالملك والقهر، ووجوده سبحانه سابق على وجود العرش، فلم يحدث خلق الله العرش تغيرا في ذاته سبحانه ولا في صفاته ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يُقدّرالأحوال والشؤون وعو اقبَها فيُوقعُها تامَّة،

---

[٢] أحمد بن محمد الفاسي، **البحر المديد**، ج٣، ص١٨٨.

﴿ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ لا شفيع لأحدٍ عندَ الله تعالى إلا بعد إذنه وهو جواب للمشركين الذين يزعمون بأنّ لهم شُفعاء عند الله تعالى، ﴿ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ تقْرِيعٌ من الله تعالى، ودعوة للتذكّر، لِمَن لم يدْفَعه تأمُّلُه في تِلك المخلوقات والدَّلَائِل إلى الإقْرَار بربوبيَّته، والخضُوعِ المطلقِ لأمره تعالى.

وتتواصل الآيات في بِناءِ الإيمان؛ فَبَعد أن ذَكَر الله تعالى بداية خَلقِ السَّموات والأرض، يُذّكر في هذه الآيات برجُوع الإنسان إليه تعالى ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وفي تقديم الجار والمجرور (إليه) على الرّجوع ما يُفيد حَصْرَ رُجوع الإنسان إلى الله تعالى لا إلى غيره، والآيةُ إشارةٌ إلى البعث والحشر اللذين هُما مِن وَعدِ الله تعالى الحقّ، فهو الذي يبدأ إيجادَ الخلق، ثُمَّ يُعيده بعد الموت. ثُم جاء تعليلُ حكمةِ البعثِ بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ وهي تقديمُ الجزاء للذين صدَّقوا بالله تعالى و أتبعوا ذلك التَّصديق القلبي بالعمل الصالح جزاءً عادلاً، وتقديمُ جزاء الذين جَحَدوا نِعمة الله تعالى شر اباً من الحميم بالغ النِّهاية في الحرارة، وعذاباً مُوجِعاً جزاءَ جُحودِهِم، وعدَمِ إيمانهم بالله تعالى.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ تعُود الآيات إلى بيانِ وحدانية الله تعالى وقدرته في الكون فتَستأنِف بانفرادِه في جَعْلِ الشَّمس مُضيئةً ساطعا نورُها بقوَّةٍ في النَّهار، وجَعْلِ القمر مُشعاً نورُهُ بقدرٍ لا يُشغل النّاس عن سُكونِ اللّيل، وتنظيمِه عِند خَلقه ليَظهَر في مَو اقع خاصة، وبالشَّمسِ والقَمَرِ يُعرف عَددُ السَّنوات، وتُحسب الأشهرُ والأيامُ، ولم يخلقهُما الله تعالى إلا لحِكمٍ عَظيمةٍ. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وهُو ﷻ يبيّن هذه الدلائل والعلامات لقومٍ يعلمون حِكمتَه وقُدرتَهُ، وفي هذا إشارة إلى أنَّ الذين ينتفعون بتلك الدَّلائل والعلامات هُم الذين يعلمُون حقيقةَ قدرةِ الله تعالى وحِكمتَه. ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ ثم يُقرّر الله تعالى بعد آيتي الشَّمس والقَمر بأنّ في تعاقُب الليل والنَّهار وجَريَانِهما، وفي ما خَلَقَ الله تعالى في السَّماوات والأرض مِن شَمسٍ وَقَمر وليل ونهار وغير ذلك.. لَدلائل وعلامات لقومٍ يَخشون الله تعالى ويجعلونَ وِقايةً لهم مِن عذابه.

١٦. عقوبة الكافرين، وثواب المؤمنين

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي

مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾

ينتقل الحديث في هذه الآية من ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ إلى الذين لا يطمعون في خير الآخرة، أو لا يتوقّعون اليوم الآخر لإنكارهم البعث، وبالمقابل رَكَنُوا إلى الحياة الدُّنيا، وسَكَنت نُفوسهُم إليها، و انصرفت هِممُهُم في تحصيل مَنافع الدُّنيا دون الآخرة، وأهملُوا النَّظَر في دلائل الكون وعلامات قدرة الله تعالى، وفي آياته القرآنية. ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فهؤلاء تَوعَّدهُم الله تعالى بأنَّ مَقرَّهُم النّار جزاء فِعلِهم الذي كانوا مُداومين عليه، إذ مَجيءُ الكسبِ بصيغَة المضارع يدلُّ على الاستمرار والتَّكرير. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أمّا الذين صدَّقوا بالله تعالى ورسوله وبما جاء من عند الله تعالى، و أتبعوا ذلك التصديق بالعمَل الصالح فأولئك يُرشدُهم الله تعالى بسبب إيمانهم، فيزدادُ ذلك الإيمان بالتقوى والعملِ الصَّالح، ويُيسِّر الله تعالى لهم سُبل الخيرات، فيورثُهم جنّة النَّعيم بحيث تجري من تحت قُصُورِهم وغُرفِهم الأنهار. ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ ويكون لأهل الجنّة دعاءٌ لكن لا على سبيل التَّكليف؛ بل هو دعاءُ تمجيدٍ وتنزيهٍ لله تعالى، فإنَّ استقرارَهم في ذلك النّعيم يجعلهم لا يجدون معهُ اشتياقا لشيءٍ يسألونَهُ. ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ كما تكون تحيّتهم فيما بينهم السَّلام، والتحيّةُ اسم جنسٍ لِما يُفاتَح به عند اللّقاء من كلمات التَّكريم، وفي هذا تنويهٌ بشأن السَّلام بين المسلمين في الدُّنيا عِند مُلاقاتِهم فهُو مِن المعاني الجامعة للإكرام. ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أمّا عَن آخِر دُعائِهم فهو قولُهم: الحمدُ لله رَبِّ العالمين، وهُو شُكرٌ وثناءٌ على الله تعالى، ومعنى ذلك أنَّهم يَختِمُون بها دُعاءَهُم.

١٧. إعراض الإنسان حال الكشف الضر، وسنة الله في إهلاك القرى

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾

جاءت هذه الآيات تابعةً لسياق الآيات السَّابقة لتكشِف غُرور المشركين المستعجلين للعذَاب، ولتُطلِعَ المؤمنين على حِكمةٍ من حِكم الله تعالى في التصرُّف في هذا الكون، وهي الرِّفقُ واللُّطف بالعِباد.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّاسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِلَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ فلو جعلَ الله تعالى تعجيل الشّرّ للنَّاس كتعجُّلِهِم للخير لتمَّ إيصالُ أجَلِهِم و إبلاغُه إليهم بالموت أو عذاب الاستئصال، وحرفُ "لَوْ" يُفيد امتناع وقوع جوابها لامتناع وقوع شرطها، فالله تعالى امتنع عن تعجيل الشَّرّلهم لامتناع حُلول أجلِهم إذْ لكلّ واحد منهم قَدَرٌ معلُوم عند الله تعالى لأَجَلِه. ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ عطف على فعل محذوف دلت عليه لو الشرطية، كأنه قيل : ولكن لا نعجل ولا نقضي بل نمهلهم فنذر. نترك . الذين لا يطمعُون في خير الآخرة، أو لا يتوقَّعُون اليوم الآخر لإنكارِهِم البعث، في كُفرهِم وتكبُّرِهِم لا يُبصرون ولا يشعرُون.

وعطفاً على ما سبق وَصَفَ الله ﷻ حالاً آخر للكافرين بِغرَض الاعتبار من أحوالِهم فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّدَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ الأصل أنَّ التجاء الإنسان وقت الشّدَّة والضيق إلى الله تعالى هو وصف عام لأيّ إنسان، ولكنه مخصوص في هذه الآية بالكافر، والدليل على اختصاصه بالكافر باعتبار رجوعِه إلى الشّرك بعد رفع الشِّدّة والضيق عنه.

فهذا الكافر إذا أصابته الشدَّةُ والضَّيقُ والعُسر طَلَب الله تعالى وسأَلهُ بتضرُّعٍ ليكشف عنه تلك الشّدَّة سواء كان مُضطجِعاً على جَنْبه أو جالساً أو مُنتصباً. والسُّؤال حَالَ الاضطجاع والرَّاحة ومُلازمَةِ السُّكونِ دليلُ الحاجة المُلِحَّةِ إلى الله تعالى، أمَّا ذِكرهُ تعالى أيضا لِحَالِ الجلوس والانتصاب فلأجل تعميمِ الحاجة إلى الله تعالى شمولها لكلّ الأحوال، لأنّه حِينئذ لا يُلهِي الإنسانَ عَن دُعاء الله تعالى شيءٌ مهما كان!.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾ هذا هو حالُ الكافر. فإذا أزَال الله تعالى عنهُ تلك الشِّدّة انتقل من حالٍ إلى حَالٍ أخرى؛ كأنَّه لم يسبِق له دُعاؤُنا، ولا احتياجُه المُلحّ إلينا لِكشْفِ الضُّرّ الذي أصابهُ. وهذا هو التَّزيين الشّيطاني للكافرين المبالغين في كُفرهِم بإعراضهِم عن دُعاء الله تعالى في حال الرَّخاء، والتمسُّك به في حال الشِّدّة فقط.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ خطابٌ للمشركين وموعظةٌ لهم بما حَلَّ على أمثالِهم من أهل القُرون الماضية، فَقدْ استأصَلَهُم الله تعالى و أفناهُم حينما أَشركُوا وَظلَمُوا أنفسهم، ثم جَاءتْهُم رُسُلهم بالحجّة الواضِحة فلم يُصدِّقُوا بهم، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ومِثلُ هذا الاستئصال يَجزي الله تعالى به سائِر المجرمين، و أقصى الإجرامِ الشِّركُ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ عطفٌ على ما سبق مِن آية الإهلاك، وهو خطابٌ لقومِ الرَّسول ﷺ الذين جاءوا بعدَ أهل القرون الماضية، يُبيّن لهم الله تعالى جعلَهُم

خلائف في الأرض ليرى ويعلَم أعمالَهُم، وإن كان الله ﷻ عالماً بأعمالِهم في الأزَل؛ إلاّ أنّه تعالى يُريد ظهور تلك الأعمال في الو اقع ليُجازِي بها.

١٨. رغبة الكفار في إتيان الرسول صلى الله عليه وسلم بقرآن آخر والرد عليهم

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ جَاءَت هذه الآيات معطوفةً على الآيات التي تحدَّثَ الله تعالى فيها عَن تعجِيل الشرّ للنَّاس، ليحكيَ لنا أسلوباً من أساليب تكذيب الذين لا يطمعُون في خير الآخرة، أو لا يتوقَّعُون اليوم الآخر لإنكارِهِم البعث للرَّسول ﷺ، فقد كانُوا يُطالبونَه أن يأتيَ لَهم بقرآنٍ غير ذلك القرآن، أو يُغيّرَه ليُو افق هَواهُم، ويغيّر عبارات الذمّ للشرك والأصنام بعبارات أخرى. ووصفُ الآيات بالبيّنات لزيادة التَّعجُّب مِن طَلبِهم.

وطلبُهم التغييرَ يُمكن أن يكون جِدًّا، ويُمكنُ أن يكون استهزاءً، وعلى الاحتمالين فقد أمَرَ الله تعالى نبيَّه برد الجواب لهُم بقوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ وهُو جوابٌ يدلُّ على امتناع تبديل القرآن الكريم مِن جِهةِ نفسِ الرَّسول ﷺ، والتبديلُ يشملُ الإتيان بغيرِهِ أو تبديلَ بعضِ تراكيبِه، وقد جاء بأبلَغ صيغِ النّفي وهو نفيُ أن يكُون التبديل مُلكاً بيده ﷺ، ثم جاء التعليل بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ لأنّ الاتباع عدمُ تجاوزِ الاقتفاء في المشي؛ ومفادُه عدمُ التصرُّف بالتغيير أو التبديل، وعلّة عدمِ التصرّف أورَدَهَا الله ﷻ على لِسان رسول الله ﷺ في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فهو ﷺ يخاف عصيانَ الله ﷻ بالإتيان بقرآن آخر غير الذي أُنزل عليه، أو تبديل الذي أُنزل عليه، إذ إنَّ ذلك العصيان يُلحق به العذاب في يوم عظيم وهو اليوم الآخر.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ جواب آخر للرَّسول ﷺ منقولٌ عن الله تعالى مَفادُه أنّ ما يتلوهُ من القرآن عليهم إنّما هُو من عِند الله تعالى، وتقديرُهُ لو شاء الله تعالى عَدَمَ تلاوتِهِ عليكُم، وعَدَمَ إعلامِه إيَّاكُم به؛ ما تَلَوتُه عَليكم ولا أعلَمَكُم الله به، ولَبقيتُ على الحالةِ التي كنتُ عليها مِن أوّل عُمُري قبل أن يأتي إليّ هذا الوحي، والتلاوة: قراءةُ المكتُوب أو استعراضُ المحفوظِ وفيه إشارة إلى إبلاغِ كلامٍ من غير القارئ أو المستعرِض. ومعنى أدراكم به: أعلمكم الله بِهِ على لساني ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ وهذا الشطر من الآية تذكير لأولئك الكافرين المعرضين بإعجاز القرآن الكريم وقوَّة حُجّته و أنَّه

مِن عِند الله تعالى، فإنّه ﷺ قد أقام بينَهُم مدَّةً طويلةً، وكان مَعرُوفا بينهم بالأُمّيَّة لا يُجالس القرَّاء ولا الكُتَّاب، ولا يُنشِئ شِعرًا، ولا يُلقي خُطبةً، ثمَّ أتى لهُم بعد ذلك بكلامٍ بليغٍ أعجَزَ أهلَ الفصاحة فيهِم، ولذلك طالَبَهُم بعد ذلك بالتفكُّروالتأمُّل واستعمال عُقُولِهم بقولِه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وهي للإنكاروالتعجُّب لِحَالِهم الذي ظَهَركمن لا يعقل؛ مع قيامِ الدَّليل على أنّ ذلك القرآن ليس مِن الرسول ﷺ و إنّما هُو من عِندِ الله تعالى، وليس بإمكانه ﷺ التغيير أو التبديل فيه.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ استفهام إنكاري يُرادُ منه بيانُ عِظم اعتداء من كذَبَ على الله ﷻ، أوكذَّب بآياته تعالى فأشرَكَ به، أوكذَّب بالقرآن الكريم وطَلَب التَّبديل أو التغيير فيه. فلا أحَدَ أظلمُ مِن هَذا المعتدي، ثمَّ جاء التَّذييل بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ليُبيّن الله تعالى أنَّ هؤلاء لا يفُوزُون بجنَّة النَّعيم، وأنَّهُم مِن المعتدِين عَلَى حُدود الله تعالى.

١٩. عبادة الكفار للأصنام، ومطالبتهم بآيات منزلة من الله

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ تتواصل الآيات في الحديث عطفاً على ما سبق في الحديث عن المشركين وأحوالِهم، أو عطفاً على المجرمين الذينَ هُم أظلم النَّاس، إذ عبادتُهم الأصنام أو غيرها التي لا تضرُّهُم ولا تنفعُهُم، وتركُهُم لعبادةِ الله تعالى؛ إنَّما هُو من الافتراء. واختيرت صيغةُ المضارع لفعل العبادة (ويعبدون) للتَّدليل على استمرارِهِم في عبادة ما لا ينفع ولا يضرّ. ثم جاء بعد ذلك قولُهُم ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ ليدُلَّ على اعتر افِهِم بأنَّ المتصرِّف هو الله تعالى، أمّا ما يعبدونه فإنَّه لا ينفعُ ولا يضرُّ؛ رَغمَ ما يزعمُونَه من وساطتِها بينهُم وبين الله تعالى.

﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ أملاه الله ﷻ على الرَّسول ﷺ الغرض منه التهكُّم والاستهزاء بهم، وحقيقتُهُ كيف تُخبرُون الله تعالى بوسيطٍ أو شفيعٍ كائنٍ في السَّماوات والأرض لا يعلمُه!؟؛ وهو المحيط بكلّ شيء عِلماً! فلذلك جاء التَّنزيه بعد ذلك عن وصفه تعالى بما لا يعلمُهُ ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقدّس الله وجلَّ عن شركهم به، فعدّ ذلك شركاً به ﷻ.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وقعت هذه الآية جملةً اعتراضيةً بين آيات وصفِ المشركين وأحوالِهم، وذلك للإشارة إلى

الاختلاف المذمُوم الذي يُحدِثُه البشر كُلَّ حين أمَام الحقِّ الواحد فهي إذا للتَّوبيخ، وجاءت الآية بصيغة الحَصرِ لتأكيدِ الخَبر.

والنّاس في الآية أتت للاستغراق لبيان أصلِهم الواحد المتَّفِق على التَّوحيد؛ فإنّ الله تعالى فَطَرَالنَّاس عَلى فِطرة الإسلام، و أكَّد تلك الفِطرةَ بإنزال الوحي وإرسال الرُّسل فكانَ مجمُوع النَّاس أُمَّةً مُتّفقةً على التّوحيد. غير أنّ ذلك لم يسلَم مِن التَّحريف والتَّضليل فاختلف النَّاس وجانبوا فِطرةَ الله تعالى، ولو شاء الله تعالى لحَكَم بينَهُم عند الاختلاف بإهلاك الضَّالين، وتنجية المؤمنين، لكنَّ قضاءَهُ بتأخير الوَعدِ والوعيد إلى أجله المعلوم سَبَقَ ذلك، والآية إشارة إلى أنّ ذلك الاختلاف مذموم عنده ﷻ.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ عودةٌ إلى الحديث عن المشركين وأحوالِهم، إذ كان من أقوالِهم اقتراح إنزال علامة صدقٍ على الرَّسول ﷺ، والعلامة المراد منها في الآية ما كان من خوارق العادات فقد علَّقوا إيمانَهم بها، وهذا القول يقولونه فيما بينَهم لنفي شُبهة رسالتِه ﷺ، أو فيما بينَهُم وبين المسلمين، أو فيما بينَهم وبين الرسول ﷺ، غير أنّ الله تعالى أدرى بحقيقة مُقترحاتِهم التي لن تنفعَهم تصديقا ولا عملاً ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ فلذلك أرشَد الله تعالى رسوله ﷺ إلى بيان أنَّ هذه من الأمور الغيبية التي لا يملِكُها ولا يقدِّرها إلا الله تعالى، وقد جاء الجواب بصيغة الحصر للردِّ على اعتقادِهم أنَّه بمقدوره ﷺ الإتيان بخوارق العادات، فلذلك أمرهُم بعد ذلك بالانتظار لتصرُّف الله تعالى، و أنّه معهُم من المنتظرين، والآية تهديدٌ لهم لِما قد ينزلُ عليهِم من العذاب.

٢٠. التجاء الناس إلى الله حال الضر، وإعراضهم عنه حال الرخاء

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ في هذه الآية تذكير للمشركين بعذابِ الله تعالى وعِقابه في الدُّنيا عند كُفرِهم وطغيانهم حال النِّعمة والدَّعَة، والمقصودُ هُنا عُموم المشركين، فإذا أذاقَهُم الله تعالى -على سبيل المجاز- شيئا من النِّعمةِ والنّفع بعد ضُرٍّ مسَّهُم مَكَرُوا في آيات الله تعالى بتكذيبهم إيّاها، والمكرُ إخفاءُ الإضرار وعدمُ إبرازِه، فلذلك جاء التهديد والإنذار بعد ذلك

من الله تعالى على لِسان رسوله ﷺ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ فالله تعالى أسرعُ عذابا وإضراراً من أولئك المشركين، وهو مطّلعٌ على طُغيانهم وضَرَرِهم؛ إذ الملائكة الموكَّلُون بإحصاءِ الأعمال يكتبون ذلك، وسمى عذاب الله مكرا مجازا من باب المشاكلة وإلا فالله عزوجل منزه عن المكر بالمعنى المعهود.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ جاءت هذه الآية تعقيبا على الآية السابقة التي يحكي فيها الله تعالى حال المشركين في الرَّحمة بعد أن أصابهُم الضُّرّ، وقد استهلَّها الله تعالى بتمهيدٍ عَلَى سبيل الامتِنانِ والتَّذكير، ومن مظاهر هذا الامتنَان تَسْييرُ الناس في البرّ والبحر تَسييرَ رِفقٍ ملائم لَهم، ثم بعد يتغيّر الحال من حال الامتنان إلى حالةِ الضرّاء ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ ومن بديع الأسلوب في هذه الآيات أن يَتغيَّر الخطاب ليدُلَّ على أنّ خطاب الامتنان في الأوّل عام لكلّ النَّاس، أمّا خطابُ الضَّراء فهو خاص بالمشركين، وحال الضَّراء ابتدأها الله تعالى أيضاً بنِعمة الرّيح الطيبة وهي الملائِمة الرَّفيقة بالرَّاكبين التي سَرَت بهم وهُم في مركَبِ البَحر للتذكير بأنّ النِّعمةَ شَمِلتهُم حتى حال الضُّر، وللإشارة إلى مجيء الضُّرّ بغتةً بعد الفرحِ بالرّيحِ الأولى! وَ"حَتَّى" في هذه الآية ابتدائية أُعقِبَت بحرف "إِذَا" وجوابها.

﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ هذه الجملة هي جواب "إِذَا"، وهو مظهر الضُّر الذي أصاب أولئك المشركين، ريحٌ شديدة السُّرعة، وموجٌ يدُور بالفُلك في كلّ مَكان حتّى طوَّقَهُم وأَحدَقَ بهم فتيقّنوا الهلاك! وهُنا ظَهَر حالُهُم وقتَ الشّدَّة ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ جوابٌ أيضا لـ"إِذَا"؛ يُظهر حال المُشركين وهُم يُمحِّضُون العبادة لله تعالى في دُعائِهم سائلين ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ دعاءٌ يَعِدُ بالشُّكر لله تعالى إنْ هُو نجَّاهُم عمَّا هُم فيه من الإشرافِ على الهَلاك، وقد أكَّدُوا دُعاءَهُم بثلاثة مؤكِّدات: لاَمُ القسم، ونون التوكيد، وصيغة ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، وهو وَعدٌ بالإيمان والطّاعة وشُكر النِّعمة.

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ وصفٌ لحالِهم بعد أن نجَّاهُم الله تعالى من ذلك الضُّرّ، استهلَّه الله تعالى بحرف "إِذَا" الفُجائية الدَّالة على استعجال بَغيِهم بعدَ النَّجاة، والبغيُ هو الاعتداء، ويعني هُنا رُجُوعهم إلى الشِّرك بالله تعالى، كما ورَدَ ذلك في سياقات أخرى صَريحة في القرآن الكريم. وزيادةُ قوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ زيادةُ تأكيدٍ لنَجاتِهم، فبَغيُهُم كانَ فِي الأرض، وكَانَ بغير حقّ.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ خطاب استئنافيٌّ للمُشركين بغرَضِ تهديدِهِم ومُحاسبة أنفسِهم قبل الآخرة، لكن جاء النِّداء فيه لكافَّة النَّاس لكي يصغوا إليه، وقد جاء في هذا الخِطاب حَصرُ البغي في كونه مُضِراً على أولئك

المشركين فَقط، وما هو إلاَّ متاع الحياةِ الدُّنيا، والمتاعُ: ما يُنتَفَعُ به انتفاعاً غير دائمٍ، والمعنى أنَّ إمهَالَ الله تعالى للمُشركين ما هو إلاَّ انتفاع مؤقَّت في الحياة الدُّنيا، ثم إلى الله تعالى يَرجعُ الجميع فيُحاسبُهُم بما عَمِلوا في الحياة.

٢١. بيان حقيقة الحياة الدنيا، والدعوة إلى دار السلام

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ هذه الآية تفصيل لما سَبقَ في الآية مِن متاع الحياة الدُّنيا مفادُها أنَّ الحياة الدنيا زائلةٌ، وهي مثل دورةِ الزَّرع في حُسنِه وبهائِه، ثم في مصيره إلى الحصد والزَّوال.

و ابتُدئ المثل بالحصر الذي يُفيد تأكيد تشبيه الحياة الدُّنيا بهذا المثل، فهو كمطرٍ أنزَله الله تعالى مِن السَّماء فاختلط ماؤه بنبات الأرض على أنواعه التي يأكلُها الإنسان والحيوان ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ إلى غاية نضُوج النبات وتمامِه وتكاثر أصنافه، وتعدُّد ألوانه، حيث صارت الأرض كامرأة بذَهبِها وتَمامِ زينتِها، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ واعتقد أهلُ تلك الأرض أنّهم مُتمَكّنُونَ ومُداومُون من الانتفاع منها، مُستمرُّون في تحصيل ثِمارها ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أتاها قَدرُ الله تعالى في ليل أو نهار فأصابَها تعالى بالجوائح والفَنَاء، والإشارة إلى الليل أو النهار لإثارة التوقُّع من إمكان زَوالِ حُسن الحياة في أيّ زَمَن مِن الأزمنة، والحصيد: الزَّرعُ المقطُوعُ، ونسبتُه إلى الأرض على سبيل المجاز، لأن المحصودَ هُو النَّبات. ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ وصفٌ لحال الأرض بعد الجائحة التي أصابها الله تعالى بها بحيث أصبحت كَأن لمَ تَعمُر في زمنٍ مضى. ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تذليل للآية مفادُهُ أنَّ مثلَ هذا التوضيح والبيان في الآيات ينتفعُ به من هُو أهلٌ للنَّظر والتأمّل. وعطفاً على ذلك بيّن الله تعالى فضله في الهداية والدَّعوة إلى جنَّات الخُلد والنَّعِيم، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فهو ﷻ يرغّب ويحرّضِ لجنات الخُلد، ويدلّل من أراد الاهتداء و اتّبع السبيلَ إلى الطريق المُوصل لمرضاته ﷻ. وسميت الجنة بدار السلام لخلوها من الكدر والتنغيص فلا مرض ولا هرم ، ولا موت ولا حزن . بينما دعاة الضلالة يدعون إلى الدنيا مع أنها دار الكدر والتنغيص.

٢٢. ثواب المحسنين وجزاء المسيئين والمشركين

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾

بعد أن ذكر الله تعالى أنه هو الذي يهدي إلى الصِّراط المستقيم بيَّن نتيجَة هذه الهداية وهي الجزاء الأوفى والخيرُ العظيم، فقال ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ للذين اتَّقوا ربهم في الدنيا و أَتَوا بالإيمان الصادق والعمل الصّالح الجنّةُ ودوامُ رضوان الله ﷻ عليهم، أو معنى الزيادة فوقَ ما يستحقون من النّعيم جزاء عملهم، وهو ما يقابل قولَه ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾، و"الحسنى" أصلها مؤنث "أحسن" وتعريفها بـ"ال" أفاد الاستغراق واستعملت هنا عَلَما على الجَنّة، ولا تفيد كلمة "زيادة" رؤية الله ﷻ لا من قريب ولا من بعيد، فكيف تكون صريحة في ذلك؟ و إنما مستند من ذهب إلى تفسير الزيادة برؤية الله حديث صهيب، وهو حديث ضعيف، مع أنه رواية آحادية لا تفيد الاعتقاد، فضلا عن معارضتها للأدلة الأخرى القطعية الدالة على استحالة رؤيته سبحانه كما تقدم في سورة الأنعام ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ولا يغشَى وجوهَ أهل الجنة غُبارولا هوان كالذي يكون للأشقياء بسبب شدة الحزن والهم من مصيرهم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هؤلاء الذين أحسنوا هُم أهل الجنة ما كثون فيها، ولا انقطاع لنعيمها أبدا ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ وبالمقابل فإن الذين اجترحوا المعاصي سواء الشركية أو سائر الكبائر الأخرى ومَاتوا ولم يَتُوبُوا منها سيَجْزيهم الله بعقاب يُناسب ما اقترفوا تماما، وهذا بخلاف الثَّواب على العمل الصالح فَفيه زيادة ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ وتغشاهم مَذّلة وهَوان، ولا يمنَعُهم من عذاب الله شفاعة ولا غَيْرها، ووجوههم مسودة كأنما غُطِّيت بقطع من ظلام اللَّيل، تشبيه لبيان شدة الاسْوِداد الذي هو علامة للمذلة والهوان ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هؤلاء الأشقياء هم أصحاب النَّار مَاكِثون فيها ولا يخرجون منها أبدا.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ واذكر–أيها الرسول- ذلكم اليوم الذي نَجمع فيه الخلقَ كلَّهم السّعداء والأشقياء للحساب، ثم نقول للذين كانوا يشركون بعبادة الله تعالى: الزموا مكانَكم مع أوْثانِكم وأصنامكم وكل الآلهة التي اتخذت شريكا من دون الله لِتَرَوا ما يُفعل

بكم. وهذا كلام فيه من التَّرويع ما لا يُتصور، وهو من دقة التعبير القرآني وبلاغته مع ما فيه من الإيجاز ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ففرَّقنا وقطَّعنا الصِّلات التي كانت بين المشركين ومعبوديهم ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ وقالت هذه المعبودات من دون الله للمشركين بها: لم تكونوا تعبدوننا عبادةَ الخضوع والطاعة المطلقة بل كان ذلك للشَّيَاطين، والقول هنا على الحقيقة بإنطاق الله إياها، أو على المجاز ولسان الحال، وأما ما يتعلق بالأصنام وغير العاقلين من المعبودات فيجوز أن يَكون نفيها لعبادة المشركين إياها حينما ركبَّ الله لها عقولا في ذلك اليوم، وعليه لم يكن لها عِلْم سَابق بهذه العبادة. ومفادُ هذا النَّفي تبرؤها من المشركين وهذا كقوله تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٦٦]، ثم تؤكد براءة ذمتها من هذا الإشراك قائلة: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ حسبنا الله شاهدا بيْنَنَا وبينكم أنَّنَا لم نَشْعر حينما كنتم تعبُدُوننا من دون الله، وصيغة الجملة خبرية أريد بها القسم، والباء في لفظ الجلالة للتأكيد، وتّبرُّؤ المعبودات من المشركين فيه إغاظة شديدة لهم، وإمعان في خزيهم، من حيث كانوا يتوقعون شفاعة وخيرا من هذه المعبودات. ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ في ذلكم اليوم المَهول والمقام الرَّهيب تَخْتَبِر كلُّ نفس ما قدمت من عمل في الدنيا، ويَحصُل لها العلمُ اليقين بحقيقة نفعه أو ضره، وتعرِف جزاءَها وَفق عملها خيرا كان أو شرا، ويُردّ جميعُ الخَلْق من الإنس والجن إلى الله للحكم بالعدل وهو أعدل الحاكمين، ويَجوز أن يكون الضَّمير في الفعل "ردوا" عائدا إلى المشركين خاصة، بمعنى تحَقَّق الحشر الذي كانوا ينكرونه، ويناسب هذا المعنى قوله "مولاهم الحق" ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وغاب عن المشركين كلُّ هذه المعبودات من دون الله وما كانوا يتَوهَّمُون ويَكْذِبون من الشُّفعاء لهم عند الله.

٢٣. وحدانية الله وقدرته على الخلق والرزق والهداية دون سواه

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾

ثم تنتقل بنا الآيات إلى بيان مواهِب الله تعالى للنَّاس، لإبطال ضلالِ المشركين في عبادة غيره ﷻ وذلك بأسلوب حِواري حِجاجي ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ خطاب متوجّه إلى الرسول ﷺ يؤمر فيه أن يقول للمشركين، -وهو موجه أيضا لجميع الناس-: من الذي يتكفل برزقكم بإنزاله من السّماء ماء واستخراجه من الأرض نباتا؟ وكذا ما يستخرج اليوم من الأرض من المعادن والثروات ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ من الذي يملك حَاسَّتي السَّمع والبَصر ويتحكم فيهما ويحفظهما و أنتم تستغلونها في حياتكم، ولو عطلها لما تَمتَّعتم بها؟ وهذا كقوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦] ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ ومن الذي يُنشئ الكائن الحي من شيء أشبه بالميّت كالإنسان من النُّطفة[٣]، أوكإخراج النبات الحي من الحب الذي هوفي حكم الميت، ومن الذي ينشئ الميت أو ما شابهه من الحي، كإخراج البيضة من الحيوان الحي ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ ومن يقوم بتدبير الشؤون المتعلقة بالخلائق في السماوات والأرض، وفي الكون جميعا ويرعاها أحسن رعاية؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ فسيقولون -بعد أن تسألهم عمّا سبق ذكره - الله هو الفاعل لذلك كله، وله وحده القدرة المطلقة عليه ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فقل لهم -ما دام قد اعترفتم بكون الله هو الفاعل لذلك- ألا تجعلون وقاية بينكم وبين عقاب الله وسخطه بالتوبة من الإشراك بالله ما ليس له شيء قليل من تلكم القدرة؟ والفاء في "أَفَلَا تَتَّقُونَ" تفريعية والسؤال إنكاري، أي يتفرع من اعترافهم بقدرة الله ﷻ الإنكار عليهم لعدم التقوى.

وبعد إقرار المشركين بقدرة الله تعالى على فعل ما تقدم يبين ما يستلزم من ذلك ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ فهذا الذي اعترفتم بقدرته على الرزق والإحياء والإماتة وتدبير الأمر هو الله ربكم المستحق للعبادة وحده ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ وليس غير هذا الحق إلا الباطل، فكيف تتَخلَّون عن عبادة الله تعالى وتنصرفون إلى عبادة غيره؟ استفهام إنكاري يبين ضلالهم وفساد منطقهم في الاعتراف بوحدانية الله في الربوبية والانصراف إلى غيره في الألوهية.

ثم يأتي تذييل يزيل التعجب من إصرار هؤلاء الكفار على ضلالهم بعد ظهور الحجج والبراهين. ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مثلما شاهدت حال هؤلاء المشركين من إصرارهم على الضلال، وجب حكمُ الله وقضاؤه على كل الذين خرجوا عن طاعته وعصوا أمره أنهم غير

---

[٣] باعتبار وقت نزول الوحي فالنطفة تُرى ميتة لا حياة فيها، أما في هذا العصر فالعلم أثبت أن النطفة حية ولا يقع منها التلقيح إن ماتت.. لذا قلنا أشبه بالميت. ويقول وهبة الزحيلي في تفسيره المنير « ويمكن التمثيل في العلم الحديث لإخراج الميت من الحي بما يطرحه البدن من الخلايا الميتة في الدم والجلد فيخرج مع البخار والعرق، ومثال إخراج الحي من الميت الغذاء الذي يحرق بالنار، ثم يتناوله الإنسان فيتولد منه الدم» [وهبة الزحيلي، التفسير المنير، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط١٤١٨،٢هـ، ج١١،ص١٦٤] .

مؤمنين، وهذا تأييس من إيمان كل مصر على الغواية، ولا يعني أن هنالك مانعا قهريا من الهداية، وإنما هو علم الله الأزلي دون أن يتنافى مع حرية اختيار العبد. ويجوز أن يراد بـ" كَلِمَتُ رَبِّكَ" وعيد الله وعذابه.

بعد أن بيَّن الله تعالى ما يتَميَّز به من صفات الرزق وملك الحواس والإحياء والإماتة وتدبير الأمور لإقامة الحجة على بطلان ضلالهم باتباع آلهتهم يزيد الأمر بيانا ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ قل -يا محمد لهؤلاء المشركين- هل يوجد من شركائكم من له القدرة على أن ينشئ خلقا من العدم ثم يفنيه ثم يعيد إنشاءه؟ وليس لهم جواب ولا دعوى لذلك مطلقا، وهذا توبيخ ضمني على إعراضهم عن الله تعالى القادر وحده على الخلق ابتداء وإعادته بعد إفنائه، ويأتي التصريح بقدرة الله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ قل الله وحده له القدرة على ما عجزت آلهتكم عنه من إحياء الخلق من العدم وإعادته بعد إفنائه، فكيف تنصرفون من عبادة الله ﷻ إلى عبادة غيره بعد هذا البرهان؟ استفهام إنكاري ليوبخهم على ضلالهم. وتؤفكون: تصرفون عن الحق بعد معرفته .

ويواصل بيان بطلان ضلال المشركين بالنفي عن آلهتهم المزعومة كلَّ ما يستحق الألوهية من أجله ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ قل هل من شركائكم من يبين طريق الحق والدّين الصّحيح ويرشد إليه؟ ولا جواب لهم أيضا، فيؤكد الله الحقيقة آمرا الرسول ﷺ ببيانها ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ قل الله وحده يبين سبيل الهدى وطريق الرشاد ويهدي إليه، بخلاف آلهتكم العاجزة عن فعل شيء من هذا ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ أفمن يرشد إلى الحق -وهو الله العليم الحكيم- أولى بالاتباع أم من لا يهتدي ولا يملك هداية غيره؟ وهذا ليس شأنه إلا أن يُهدى من قِبل غيره، وكلمة (يهدي) قرأ حفص عن عاصم ويعقوب بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال (يَهِدّي) وأصلها يهتدي فأدغمت التاء في الدال وجاءت الهاء مكسورة للتخلص من التقاء الساكنين، وقرأ نافع و ابن كثير و ابن عامر و أبو عمرو بفتح التحتية وفتح الهاء (يَهَدّي) على أن أصله يهتدي أبدلت التاء دالا لتقارب مخرجيهما وأدغمت في الدال ونقلت حركة التاء (الفتحة) إلى الهاء الساكنة، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وسكون الهاء وتخفيف الدال (يَهْدِي) على أنه مضارع هدى القاصر بمعنى اهتدى ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فكيف تحكمون بالاهتداء بآلهتكم التي لا تملك نفعا ولا ضرا فضلا عن الهداية؟ استفهام تعجيبي على حكمهم بألوهية من لا يَهْتَدي ولا يَهْدي، استُعمل أفعل التفضيل "أحق" في معناه التفاضلي بين أمرين وهو الحق في اتباع الله تعالى والحق في اتباع آلهتهم المزعومة، على تقدير أن هناك حقا في اتباعها ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ ولا يهتدي أكثر هؤلاء المشركين في اتباعهم آلهتهم الباطلة إلا بالعلم المشوب بالشّك، وهذا الظن لا يفيد أيَّ شيء في اتباع الحق اليقيني وهو ألوهية الله تعالى؛ وقد نصب الحجج القاطعة في ذلك. وقوله تعالى "أكثر" بدل الكل إشارة إلى أن

من المشركين -وهم قلة- من لم يقتنع بألوهية أصنامهم لكنهم أظهروا ذلك مجاراة لقومهم وحفاظا على مكانتهم بينهم، وإن كانوا غير معذورين في ذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ إن الله تعالى له العلم المطلق بما تفعل الخلائق والناس جميعا -منهم هؤلاء المشركون- من الإشراك والتكذيب، وهو تذييل فيه إشارة إلى وعيد مرعب للذين يتبعون الظّن ويُعرِضون عن الحق.

٢٤. حجية القرآن وإعجازه، وموقف الناس منه

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)﴾

تقدَّم فيما سَبق من هذه السُّورة الحديثُ عن تعجب المشْركين من إيحاء القرآن إلى الرسول ﷺ وطلبوا منه أن يأتي بغيره[٤]، ويعود الآن إلى الكلام عنه ببيان أحقّيته ويتحَدَّاهم الله ﷻ أن يكون مكذُوبا عن الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لا يمكن ولا يتصور أن يكون هذا القرآن مخْتَلَقا ومَكْذُوبا عن الله تعالى، لأنَّه فوق طَاقة أيّ مخلوق وقُدراته، بل هو من عند الله العلي القَدِير ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ ولكنه جاء مصدِّقا -بكسر الدّال- للكتب السَّماوية الأخرى التي كانت موجودةً وقت نزوله وهي التَّوراة والزَّبوروالإنجيل، وجاء أيضا مصَدَّقا -بالفتح- لما في هذه الكتب من الحقائق وما فيها من العهد على أصحابها أن يؤمنوا به ويتَّبعوه، كما جاء بيانا لشريعة الرسول محمد ﷺ من العقائد والأحكام، أو بيَانا لما في اللوح المحفوظ. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولا شك فيه أنه مُنزَّل من الله ربّ العالمين؛ لما اشْتَمل من المعجزات. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل أيقولون أن محمدا اخترع واختلق هذا القرآن من عنده، دون أن يتلقاه وحيًا من الله؟ استفهام إنكاري تَعجُّبيّ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قل -يا محمد إن ادعيتم أنه مُفْترى من عندي- هاتوا بسورة واحدة مثلِ سُوَره في غاية الإتقان من الفصاحة وحسن النَّظم، واستعينوا على ذلك بمن قَدَرتم مِن أيّ أحد غيرالله تعالى، إن كنتم صادقين في دعواكم هذه. وهذا تحدٍّ

[٤] ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

للمشركين لا قِبَل لهم به، ولا ينتظر منهم تنفيذٌ كما في آية البقرة ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [سورة البقرة، ٢٥][٥] ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ بل سارع هؤلاء المشركون إلى التَّكذيب بالقرآن قبل أن يتأملوا في آياته ويدركوا ما فيه من المعَاني الدَّالة على صِدْقه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ وكذَّبوه أيضا قبل أن يبَيَّن لهم ما يحتاج إلى تفسير وبيَان، أو قبل أن يقَع ما جاء فيه من الأمور الغَيبِية التي أخبر الله ﷻ أنها ستحدث مثل توعدهم بالعذاب. وهذا التكذيب مخالف لعمل العقلاء، أي لو وعيتم حقا ما جاء فيه و أنصفتم لما صدر منكم هذا العناد، واستعمال "لما" للدلالة على أن تأويله -وهو وقوع ما تُوُعِّدوا به- آت وفيها إشارة تهديدية، أي انتظروا ذلك واستعدوا للمواجهة. ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مثل ما كذب هؤلاء بحقائق القرآن وردوها قبل أن يعُوها، وقع هذا تماما من مكذبي الأمم السالفة، وسيحصل لهم من العذاب مثل ما حصل لأولئك. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ فتأمل -أيها الرسول- كيف كانت نهاية المكذبين السابقين الذين ظلموا أنفسهم، وماذا فعل الله بهم من التعذيب والإهلاك، وهو مصير كل مُكذِّب. ويَجوز أن تَكون "كيف" اسم استفهام بمعنى تَفكَّرْ في هذا السؤال أي في جوابِه. وهذا الكلام تسلِية للرسّول ﷺ وتخفيف له من أثر معارضة القوم له، كما أنَّه وعيد و إنذار لهم.

ثم يُبيِّن حالَ النّاس تُجاه القرآن وهم صنْفان ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ ومن الذين أُرسل إليهم الرسول ﷺ من يُؤمن بالقرآن أنَّه وحي من الله ﷻ ويتَّبِعه ويعمل به، ومنهم من لا يؤمن بذلك ويعتَرِض عليه إلى أن يموت وهذه حالُه. ويجوز أن يكون المعنى: مِن هؤلاء المكذِّبين من يؤمن به في قَرَارة نفسه؛ لكن يُظهِر كفرَه مُجاراة لقومِه، وخوفًا من زوال مكانَته بيْنهم، ومنهم من لا يؤمن به عنادا وكبرا على الحق أو جهلا وتقليدا لكُبَراء القوم عندما عطلوا عقولهم ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ والله وحده عَلِيم بالمفْسِدين الْمُتَصامِمِين عن الحقّ، أو المصِرّين جهلا وتقْليدا، وسيُجازيهم على كبْرهم وعنادِهم أشدَّ العذاب. وصَفَهم بالفساد؛ لأنّ من شأن من يُخالِف الحقَّ أن يَظهَر الفسادُ بأفعاله الباطِلة المعارِضة له.

ثم يأتي الحدُّ الفاصِل بين هؤلاء المصِرّين على عِنادهم وبين الرَّسول، ويُبرِّئ ساحة الرسول ﷺ من تحمُّل المسْؤولية على إصرَارهم ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ وإن استمرّ هؤلاء الكفَّار على عِنادهم وتكذِيبهم فتَوَلّ عنهم قَائلا لهم -في عِزّة وثِقة- سأَلْقَى لوحدي جزاءَ عمَلي، كمَا أنَّكم ستلقَوْن لوحدِكم جزاء عملِكم الباطل. ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلستم مُحاسبين ولا مؤاخَذين على عَملي، كما أني لستُ مُؤاخَذا على عملكم، أي لكلٍّ جزاء عمله، وهذا تأكيد لما سبق ومزيدُ بيان لتنَصّل الرَّسول ﷺ من إصْرارهم على الضَّلال، وتقريعٌ لهم لعلَّ فيهم من كتب الله له الهدَاية.

---

[٥] يقول تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ [سورة البقرة: ٢٣، ٢٤]

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ ومن هؤلاء المشركين من يستمع إلى ما تَتْلوه من الوَحْي ولكن لا يهتدون، فكما أنه ليس بإمكانِك أن تُسمِع الصُّم، كذلك ليس بمقدُورك هداية هؤلاء الذين عطَّلوا عقُولهم عن التَّفكّر فيما يسْمَعون من وحي الله، فوجْه الشَّبه تعطّل حاسَّة السّمع عند الصُّم وتعطّل ملكة التَّفكر عند هؤلاء. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ ومنهم من يَرى دَلائل صِدق نبوّتِك ولكن لا يهتدي لِفَقْد بصِيرته، فليس بمقدورك هدايته مثل ما أنه ليس بمستطاعِك أن تُرِي فاقدَ البصر ما عجز عن إبصارِه، وهذا تسليةٌ للرَّسول ﷺ عندما يواجه عنادَ الكفَّار له وإصرارَهم على ضلالِهم وهو يحاول ردّهم إلى سواء الصِّراط. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ إن الله لا يعاقبُ أيَّ أحد من الناس على شيء لم يقترفْه ولا يجازِيه إلا على مَا فعل، ولا يظْلِم بإجْبار أحد على اقترافِ ما لم يخْتَره، ولكنّ الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بإرادتهم، وذلك بمعارضتهم للبَيِّنات، وارتكابهم للمعاصي والسِّيئات، وتركهم لأوامر الله ﷻ والواجبَات، وليس ﷻ بظالم لهم عند معاقبته إياهم. وهذا الكلام إعلام بأن الله لم يُرد لهؤلاء الكفَّار الضَّلال إلا لكونهم أهلا له، وهو ثمرةُ غيِّهم وعنادِهم. وتعريض لهم بالعقاب العادل الذِي سَيَلحقُهم.

٢٥. خسارة المكذبين بلقاء الله

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣)﴾

جاء الحديث عن الحشر في موضِع سابق من السورة[٦] في معرض افتضاح أمرِ المشركين ببراءة الشركاء من عبادتهم إيّاهم، ويعود الكلام عن الموضوع لمزيد بيَان المخازي التي يتَلقاها المشْركون في الحشر ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ اذكُر -يا محمد- ذلك اليوم الرّهيب الذي

[٦] ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨]

يجمع الله فيه هؤلاء المشركين للحساب وكأنهم لم يمْكُثوا في الدنيا -أو في القبر- إلا ساعة من النَّهار من شدة هول ذلك اليوم، ويتعارف بعضهم على بعض كما يفعلون في الدنيا؛ لكن تعَارف ملامة وتوبيخ على إضلال بعضهم البعض، والمقصود بـ"السَّاعة" المدّة القَليلة من الزمن. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ قد خسر الذين لم يؤمنوا بالبعث، ولم يوَفَّقوا في إصابَة الرُّشد و اتباعه، وظهورُهذا الخسران له ارتباط بما سبق من بيان حالهم يوم الحشر الذي ينكرونَه فعايشوه بأجسامهم ووعيهم التي كانوا عليها في الدنيا، فكان الأمر كأنهم لم يلبثوا إلّا مدّة قليلة في زمن التكذيب. ثم يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ في قوله تعالى ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ إما أن نُشهدك في حياتك ما نعد هؤلاء المكذبين من العذاب المعجل في الدنيا فننصفك منهم، أو نتوفاك قبل ذلك ونرجئه إلى الآخرة، ففي كلا الحالين يعود الأمر إلينا. ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ ثم الله عالِم -عِلْم تحقيق- أفعالَهم وجرائمَهم، وهذا كناية على مجازاتهم عليها بعقاب يستحقونه. جاءت "ثم" هنا لبيان الأهمية ويصطلح عليها بالرتبة المهلية؛ أي والأهم من هذا والأخطر معاقبة الله لهم على ما يفعلون. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ والله أرسل لكل أمة رسولا لبيان طريق الهداية، فإذا جاءهم الرسول بالهدى والبينات وكذبوه قضي بينه وبين مكذبيه بإهلاكهم قضاء عادلا لا ظلم فيه لأحد، ويجوز أن يكون معنى ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ...﴾ إذا جاء رسول أمة يوم القيامة بدأ حسابهم... ويدل على المعنى الأول كلمة "بينهم". ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ويقول المشركون -على سبيل الاستهزاء والتكذيب- متى يكون هذا الذي تعدِنا به من العذاب؟ أي إن كنت صادقا فيما تدعي فعجل به. وحكي قولهم بالمضارع للدلالة على تكررهذا منهم. فكان الجواب ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قل لهم: ليس بوسعي أن أضُرّ نفسي أو أن أدْفَع ضُرّا عنها ولا أن أجلب نفعًا لها إلا ما أراده الله لي من ذلك، فكيف أملكه لغيري و آتيكم بما تستعجلون! فهذا أمريعود إلى مشيئة الله وحكمته. وقدّم الضّرعلى النّفْع لأنّه في سياق استعجال المشركين للعذاب. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لكل أمة -تستحق الهلاك- وقت محدد معلوم عند الله لهلاكهم، فلا يتَأخّر عنهم ولو بساعة ولا يتَقدّم، بل يأتي في حينه المقدر، والمقصود بـ"الساعة" المدة القليلة، والكلام زيادة بيان لجواب طلب استعجال العذاب مفاده: أن لا معنى للاستعجال، فالله لا يعبأ بما تقولون وكلّ شيء عنده مقَدّر حسْب مشِيئته وحِكمته، وهو أيضا تهديد لوقوع العذَاب لا مَحَالة عندما يَحين وقتُه، كما أنَّه إثَلاجٌ لصدرِ الرّسُول ﷺ على ما يُجادَل به من قبل المكذبين.

ثم يأتي جواب آخر للمشركين الذين يستعجلون العذاب استهزاء منهم وتكذيبا به ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ قل للمشركين أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلا و أنتم نائمون أو نهارا و أنتم في

خضم نشاطكم، أي في جميع أحوالكم، أو المعنى إن أتاكم العذاب هذه اللّيلة أو نهار الغد وهذا متابعة لهم في استعجال العذاب ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ما الذي يرَوْنه في العذاب صالحا للاستعجال به؟ استفهام للتعجب من أمرهم، وتقريعِهم على طلب أمروخيم وهو استعجال العذاب بطلبه أو بفعل ما يوجبه من المعاصي، أي لا يصدرهذا من أي عاقل. ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أتكفرون بالعذاب ثم إذا وقع تؤمنون به! و"تكفرون" محذوف مقدر. أو "ثم" للتراخي الرّتبي، أي لبيان أن الأهم والأغرب من الاستعجال بالعذاب إيمانهم به بعد أن يقع، فيقدر الكلام "ثم أإذا ما وقع آمنتم به"، ويقال لهم حينئذ ﴿آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أفي هذا الوقت تؤمنون به وقد كنتم تكذّبون به من قبل؟ فلا فائدة من هذا الإيمان بتاتا ويا ليتكم آمنتم به حين كان ينفعكم الإيمان. وهذه استفهامات إنكارية تؤدي معنى اللوم الشديد وتوبخهم على فساد منطق تفكيرهم بأبلغ عبارة.

وينتقل الكلام إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة والمتعلق بالأشقياء ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ ثم يقال للظالمي أنفسهم -بالكفر والتكذيب وارتكاب كبائر المعاصي- حين يدخلون نار الخلد: تجرعوا العذاب الدائم الذي لا زوال له. و"ثم" للتراخي الرتبي عطَفَت هذا الكلام على ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي إن عذاب الخلد أعظم من عذاب الدنيا، وعبارة "ذوقوا" استعارة تهكمية. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ولا تجزون إلا بمقدار ما كنتم تقترفون من المعاصي والآثام، أي حجم العذاب ونوعه متناسبان تماما مع العمل، وعملكم هو سبب إصابتكم بالعذاب.

ثم يعود الكلام إلى مجادلات المشركين وتشكيكهم في ما يوعَدُون من العذاب ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ ويستخبرك المشركون -أيها الرسول- هل ما تعدنا به من العذاب الدنيوي أو الأخروي هو ثابت و اقع؟ ويجوز أن يكون المعنى استفهاما عن جديّة الرسول في كون العذاب حقا، كأنهم قالوا: إنَّا جازمون بكَذِبِكَ لكن أخبرنا هل أنت جاد فيما تقول ومتعمد الكذب على الله أو أنت هازل؟ ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ قل لهم: نعم والله إن ما وعدتكم به من العذاب لحق لاريب فيه، وسيلحقكم لا محالة، ولستم بغالبين ولا مُفلِتين من الله تعالى أن يبعثكم ويعذبكم، فأنتم في قبضته وتحت سلطانه.

٢٦. عدم قبول الفدية من الظالمين يوم القيامة

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾

يتحدّث الله تعالى في هذه الآيات عن مدى خُطورة ما يستقبِل الأشقياء من العذاب يوم القيامة وسوء المصير، ويصورلنا ذلك في صورة افتراضية ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ فرَضا أن لكلّ شقيٍّ في الآخرة -بالشرك أو سائر الكبائر التي لم يتب منها- ما يملأ الأرض من الأموال والمنافع وغيرها لِدَفْعِها فديةً للتَّخلّص من العذاب ما نفعه ذلك شيئا كما قال تعالى: ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً وَلَوِ افتدى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]، تحذير في غاية التَّرويع لمن كان له قلب للاعتبار والادّكار مادام فرصة النجاة متوفرة في الدنيا. ويبين الله أسفهم الشديد ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وأخفى هؤلاء الظالمون أسفهم وحسرتهم -على ما فرطوا في جنب الله من التوبة والاستقامة على طريق الهدى- حين عَاينوا العَذاب حقيقة بعدما كانوا يخبَرون به وظنوا أنه و اقع بهم. و إنما أسروا الندامة لأنهم دهشوا لرؤية ما لم يكونوا يحتسبون فلم يطيقوا صراخا ولا عويلا.أو معنى "وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ" أخلصوها لله، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وحكم الله ﷻ بين الخلائق بالعدل، أو قَضَى فيهم، أي على كل واحد منهم دون أن يكون بين أشخاص، وجازاهم بما يستحقونه تماما دون أن يُظلموا شروى نقير. ويعلل أحقِّيَة الله تعالى في القضاء وقدرتَه على إنفاذ وعده بمطلق ملكيته للوجود ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ انتبهوا أيها الناس وعُوا جيّدا أنّ كلّ ما في السّموات والأرض من الموجودات -مهما كانَ نوعها- ملك لله ﷻ وحده ويتصرف فيها بحكمته كيف يشاء، و"ألا" حرف تنبيه يُستعمل عند إرادة التّحدث عن شيء بالغ الأهمية، وتقديم خبرإن وهو "لله" على اسمها للاهتمام باسم الله ﷻ ولإفادة قصر الملكية عليه ﷻ. ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و انتبهوا أن ما وعد الله تعالى به النّاس من الجزاء الأخروي سيتحقّق لا محالة، ولكنّ أغلبَهم غافلون عن هذا وغيرُ متيقّنين منه؛ وذلك بإعراضهم عن ما يجب عليهم أن يسلكوه للنَّجاة من العذاب والفوزبالرضوان. ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الله هو الذي يُحيِي جميع الخلائق ابتداء وإعادة ويميتُهم، وسيبعثكم أيها المكلفون وترجِعون إليه ليحاسِبكم على ما قدّمتم وأخّرتم تنفيذا لوعده المذكورسابقا، وبرهان هذا ملكيَته ﷻ للسماوات والأرض وما فيهما، وفي هذا ما يدعو للاستعداد للقاء الله بالإيمان والعمل الصالح.

٢٧. القرآن موعظة وشفاء، والتحليل والتحريم دون بينة افتراء على الله

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠)﴾

بعد الانتهاء من جدال المشركين وتوعدِهم بإنفاذ وعيده عليهم، يفتتح الله موضوعا جديدا يدعو الناس فيه إلى كتابه العزيزونوره المبين، ويبَيّن فضلَه وخيرَه مرغبا إياهم في الاهتداء به ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ نداء لجميع الناس يؤكد فيه أن الله ﷻ أتاهم بالقرآن من عنده موعظة لهم؛ ففيه العبروالعظات والتذكير بالآيات، وعلاج ودواء لأمراض النفوس من الشرك والشك والجهل وسائر معاصي القلوب؛ وذلك ببيان الحق وتصحيح المفاهيم والمعتقدات الباطلة. ومع هذا فلا مانع من كون القرآن أيضا شفاء للأسقام البدنية وللأمراض النفسية، وقد أثبت الو اقع والتجربة العلمية ما لتلاوة القرآن من تأثير على المادة نفسها، والرقية الشرعية تصب في هذا المنحى. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والقرآن هداية من الحيرة والضلال لمن استهداه، ورحمة -في الدنيا والآخرة- للمؤمنين المهتدين به المنتفعين بتعاليمه، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] ويتفرع -من كون القرآن متصفا بالأوصاف الجليلة المذكورة- الاعتناءُ به وهذا ما يأمربه تعالى في قوله ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ قل -أيها الرسول- للناس أن يفرحوا بفضل الله ورحمته المتمثل في القرآن الذي يدعو إلى الإسلام، ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ فيه تقديم المعمول "ذلك" على العامل "يفرحوا" لإفادة الحصر، ولولا قصد حصر الفرح بالقرآن لقال "فليفرحوا بذلك"، وهذا إشارة إلى عدم الفرح بالدنيا وحطامها، والفرح شدة السروروهو الابتهاج النفسي الذي لا بد أن يتبعه العناية بالمفروح به و اتباعُه والعملُ وفقه. ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هذا القرآن ودين الإسلام الذي يدعو إليه أفضل مما تجمعون أيها الناس من الأموال والمكاسب، وهو أحق بالفرح والعناية به، بل لا مجال للمقارنة و إنما هو دعوة وحث على الاستمساك بحبل الله تعالى ومجانبة كل ما يخالفه. معناه أن كل شيء من ملذات هذه الدنيا معارض لما يدعو إليه القرآن أعرضوا عنه و أقبلوا على هدى الله ﷻ. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أخبروني أيها المشركون عن هذا الرزق الذي وفره الله لكم من الحرث والأنعام وغيرها فتُحِلُّون بعضه وتحرمون البعض الآخر كالسائبة والبحيرة بغير توجيه من الله ﷻ. وقد بين الله تعالى ذلك في قوله ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[٧] [الأنعام: ١٣٨، ١٣٩] ثم ينكر عليهم صنيعهم هذا باستفهام إنكاري ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ قل لهم: ألكم من الله -منزل الرزق- إذن بإصدار أحكام التحليل والتحريم أم أنكم تكْذِبُون عليه وتتَّبعون أهواءكم؟ ثم

---

[٧] راجع تفسيرها في ص

يوجه الله لهم ولغيرهم من المفترين عليه تهديدا ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وما بال هؤلاء الذين ينتحلون الكذب على الله في تحليلهم وتحريمهم للرزق بغير علم؟ أيعتقدون أن الله سيصفح ويتجاوز عنهم يوم القيامة؟ هيهات لهم ذلك إن لم يثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى سواء الصراط. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ إن الله متفضل ومنعم على الناس بإنزال القرآن الكريم، وبإمهال المشركين والعصاة وعدم تعجيل العذاب لهم، ولكن أكثرهم لا يعتبرون بهذا ولا يشكرون الله بالانتفاع بآياته وتصحيح أخطائهم، وهذا إشارة تهديدية إلى تمرد المشركين وعدم الاستجابة إلى دعوة الرسول ﷺ رغم تفضل الله عليهم بالموعظة والإرشاد والرزق ومقابلة ذلك بالكفران.

٢٨. علم الله بأعمال العباد ورحمته بأوليائه المتقين

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾

انتقال إلى بيان ثواب الرسول ﷺ في قيامه بأمر المسلمين دعوة وتدبيرا لشؤونهم، وبيانِ ثواب المسلمين في اتباع الرسول ﷺ والعمل بأمره ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وفي جميع الأحوال التي تكون فيها -أيها الرسول- من شؤون المسلمين وتدبير أمورهم، وتلاوة القرآن للتبليغ والإرشاد، وكذا ما من عمل تخوضون فيه أيها المسلمون، فالله عالم بكل ذلك وسيجازيكم عليه أحسن الجزاء. ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ولا يغيب عن علم الله تعالى شيء معنوي أو حسي، ولو كان صغيرا كمثقال ذرة في أي موضع من الأرض أو من السماء أو أصغر من ذلك أو أكبر منه، فهو محفوظ في علم ﷻ الأزلي. وفيه استعمل لفظتي الأرض والسماء للتعبير بهما عن الكون كله، واستعملت كلمة "الذرة" للمبالغة في التعبير عن الصغر، والمقصود من هذا الكلام مزيد بيان اطلاع الله ﷻ المطلق على الأعمال، ومجازاة أصحابها عليها.

بعد التَّعريض بالوعد الذي يلحق المؤمنين في قوله ﷻ ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ يأتي التصريح في قوله ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تيقنوا أن الذين تولوا الله بالتقوى والعمل الصالح، وتولاهم بكل ما يليق بهم من التَّوفيق والإكرام لا يلحقهم خوف من أهوال يوم القيامة وعذابه، ولا يتملكهم الحزن على ما فاتهم من حظوظ الدنيا؛ لأنهم كانوا في دنياهم يستعدون ليوم

الحساب بالإيمان الصَّحيح والعمَل الصَّالح، و"ألا" حرف تنبيه يستعمل عند إرادة لفت نظر المستمع إلى أمر مهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ هؤلاء الأولياء صِفتهم الإيمان بالله، وتقوى الله تعالى؛ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، أو المسارعة إلى التوبة حين الوقوع في شيء من الآثام. وعبر بصيغة "وَكَانُوا يَتَّقُونَ" للدَّلالة على ملازمتهم للتَّقوى. ومن أمارات ولاية الله للمتّقين ما جاء في قوله ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ البشارة هي الإخبار بأمر سار قبل حدوثه، وبشارة الدنيا أنواع منها: ما يبشر الله به عباده في القرآن أو على لسان رسول الله ﷺ، ومنها ما روي في الحديث أنها الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له[٨]، وكذلك ما يكون في لحظة الاحتضار من التبشير برضوان الله وغير ذلك، ومن بشارة الآخرة: ما يتلقاه الصالحون من التبشير على لسان الملائكة بالسعادة الأبدية وطمأنتهم بالنجاة من العذاب، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَ أَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [سورة فصلت، الآية: ٣٠] ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ تأكيد على تحقيق البِشارة أنَّ الله لا يخلف ما وعد المتقين من النعيم، وعلى وجه العموم أيضا لا يخلف ما توعد الفاسقين من العذاب، فالله صادق في وعده ووعيده ويؤيد ذلك قوله ﷻ ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [سورة ق، الآية ٢٩]، وتأكيد آخر للبشرى ببيان أن هذا الفوز عظيم؛ لأنه نجاة من كل سوء وحصول على كل مرغوب من الخير.

٢٩. عزة الله تعالى وملكه، وكذب الذين نسبوا الولد له

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ خطاب موجه إلى الرسول ﷺ ينهاه فيه عن التأثر بما يقول المشركون من الاعتراض على نبوته والانتقاص من قدره؛ فينبغي أن لا يحصل ذلك الحزن لأن الغلبة الشاملة والقوة الحقيقية كلها لله وحده البالغ السمع لجميع أقول المكذبين والعليم -بصيغة المبالغة- بجميع نو اياهم و أفعالهم. فهو الذي يحفظه من كيدهم وينصره عليهم، ويعاقبهم

---

[٨] رواه مسلم، من طريق ابن عباس، ك: الصلاة، ب: النهي عن قراءة القرآن في الركوع، ر:١١٠٢.

على أفعالهم. ويجب الوقوف بعد قراءة القارئ (ولا يحزنك قولهم) ثم يبدأ بقراءة (إن العزة لله جميعا) حتى لا يوهم أن هذا من قول المشركين، ثم يُواصل الحديث للبرهان على عزة الله تعالى بقوله ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ انتبهوا إلى أن كلّ من في السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن وغيرذلك -ولو من غيرالعقلاء- هم من خلق الله ﷻ وملكه وحده لا شريك له، فهم لا يخرجون عن إرادته وطوعه، ولأهمية ما ذكر أتى بحرف تنبيه "ألا" و أكد الكلام بـ"إن" وقدم خبرها "لله" على اسمها "مَنْ" مع توظيف لام الملك. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ وهؤلاء المشركون الذين يلتجئون ويستعينون بمخلوقات غير الله ﷻ لا يتبعون شركاء حقيقيين، بل يتوهمون أنهم على الصواب، فهم يحْدِسون ويخَمّنون ويكْذِبون فيما يعتقدون.

ويلفِت الله تعالى النَّظر إلى براهين على قدرته، متضمنة مِنَنًا على الخلق، وهذا لِبيَان فساد نهج المشركين باتباعهم الظَّن، وضلالهم في مخالفة الحقّ وكُفران النِّعم ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ من دلائل قدرة الله تعالى ومن تمام إنعامه وإكرامه عليكم أيها الناس أنه هو وحده الذي خلق لكم الليل لابتغاء راحتكم فيه بعد نصب النهار بسبب نشاطكم، كما خلق لكم النَّهار وجعله مُضيئا تبصرون فيه الأشياء لتيسير الاسترزاق وقضاء حوائجكم. قوله "وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا" مجاز عقليٌّ، إذ نسب الإبصار للنهار نفسه، والمبصر في الحقيقة هم المخلوقات المستفيدة من ضوء النهار، وهذا لِلمُبالغةِ فِي حُصولِ الإبْصارِ فِيهِ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ تأكيد على أنّ في خلق اللّيل والنَّهار وتسخيرهما للناس دلالاتٍ وبراهينَ على قدرة الله الواحد الأحد لمن كان يسمع مع التَّفكر للاعتبار أن الله وحده المستحق للعبودية المطلقة. ثم يعود إلى بيان ضلال المشركين وتفنيده ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ نسب المشركون إلى الله تعالى اتخاذ الأولاد[٩]، إذ قالوا الملائكة بناتُه، وقيل تتحدث الآية أيضا عن اليهود والنصارى كما جاء في سورة التوبة ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣٠]. والاتِّخاذ أخذُ شيء موجودٍ أو تكوينُه للانتفاع به ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تَنَزّه الله عن ذلك وتعالى علوا كبيرا، فهو الْمُستَغني عن جَميع مخلوقَاته، كيْفَ لا وهو المالك لكلّ ما في السموات وما في الأرض ولكل شيء. ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ليس لكم أيها المشركون -على افترائكم على الله تعالى بنسبة الولد إليه- أي حجة ودليل، فكيف تقولون ما ليس لكم به علم، وتكذبون على الله ﷻ؟! وهذا تَوْبيخ لكلّ من يدَّعي ما ليس له حجة عليه. ثم يهدِّد المفتَرين عليه ويتوعدهم بقوله ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۞ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أَعلِم يا محمد كلَّ من

[٩] لفظ الولد مصدر، وهو اسم يطلق على المفرد والجمع، كقول أحدهم: هؤلاء ولد فلان.

يكْذِب على الله أن لا فوزَ لهم ولا ربحَ، وليس لهم إلا شَيء قليل من المنفعَة القَصِيرة الأجَل في هذه الحياة الدنيا، ثم يَنقلبون إلى الله بعد موتهم ليُعذِّبَهم عذَابا شَديدًا جزاءَ كُفرِهم وضَلالهم. و"ثم" ليست للتراخي الزمني و إنما لِذِكر الأَهمية، أي أهم من ذلك ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ...﴾.

٣٠. نبأ نوح مع قومه

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)﴾

بعد ذِكر الدّلائل على وحدانية الله تعالى، وذكرِ حوارٍ بين الرّسول ﷺ والمشركين وتكذيبهم و افتراءاتهم، يَعْرُج الحديث بنا إلى تَناول قصص الأنبياء: نوح عليه السلام، موسى وأخيه هارون عليهما السلام مع فرعون، يونس عليه السلام، إنذارا للمشركين بسوء عاقبة المكذبين، وتسلية للرسول عمّا يلاقي من إعراض قومه و إيذائهم له.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ و اقرأ أيها الرَّسول على المفْتَرين قصَّة نُوح عليه السلام، حيث نَادى قومه وقال لهم: إن كان قد عَظُم وشَقَّ عليكم مُكثي بينكم وتذكيري إياكم بدَلائل وحدانية الله وفضلِه، وعزَمتم على إيذائي فإني قد شددت أزري بالله وفوَّضت أمري إليه ولا أُبالي بما تفعلون. وفي لفظ "يا قوم" نسبة القوم إلى نوح عليه السلام بحذف ياء المتكلم، وفي هذه النسبة تحبيب القوم إليه وإشعارهم بأنه يريد لهم الخير في دعوته لهم. ويواصل نوح عليه السلام خطابه لقومه مظهرا ثقته بالله وعدم مبالاته بما يكيدون له، فيقول: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ فقرّروا ولا تتردّدوا في شأنكم مستعينين بشركائكم الذين ينصرونكم، و افعلوا ما أنتم فاعلون علنا دون إخفاء، ثم نَفِّذوا مكَائدكم ولا تُمهلوني. ومعنى هذا إظهار عدمِ الاكتراث بهم والاعتصامِ بالله الذي سيكفِيه شرّهم، وهذا نظير قولِ السَّحرة لِفرعون ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [سورة طه، الآية: ٧٢] ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ إن كنتم قَد أعرضتم عن دعوتي إياكم فليس بسبب أني قَد طَلبت منكم أجرا على التَّبليغ، بل أطمع من الله فقط أنْ يُجازِيني. وقال هذا قَطعا لِكل أَعذارِهم

في الإعراض والمكابرة. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وإن أبيتم إلا الإعراض فقد أمرني ربي أن أكون من المسلمين له، المذعنين لأحكامه ولو بقيت وحدي، وعبارة "أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" أبلغ في المعنى من عبارة "أَنْ أَكُونَ مُسْلِمًا" ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فأصر قوم نوح على تكذيبه وتمادوا في ضلالهم فنجاه الله مع الذين آمنوا معه بإركابهم السفينة، وجعلهم خلفا للمكذبين الذين أغرقهم الله. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ تأمل يا محمد النهاية السيئة لهؤلاء المكذبين الذين لم ينتفعوا بالإنذار بعد إذ جاءهم، والغرض من هذا الكلام التخفيف عن الرسول ﷺ حين يشتد عليه أثر تكذيب قومه له، وتحذير لكفار قريش ووعيد لهم إن استمروا على المكابرة والعناد.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وبعد أن أهلك الله قوم نوح و انصرمت فترته أرسل بعده رسلا إلى أقوامهم وهم: هود وصالح و إبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام[١٠]، و أيدهم بالمعجزات الدَّالة على صدقهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ فلم يؤمن هؤلاء الأقوام بالرسل وكذبوا بما جاؤوهم من الحجج والمعجزات، كذلك يختم الله على قلوب الذين جاوزوا الحدود بكفرهم وعنادهم، وهذا تقريع لكفار مكة وتحذير لهم، ولكل الظالمين الذين بلغوا منتهى الإعراض لعلهم يعتبرون، والطّبع تشبيهٌ لها بالنّقود المسكوك عليها رسمٌ فلا تقبل غيره.

٣١. مبعث موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وملئه

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)﴾

تنتقل بنا الآيات إلى القصة الثانية التي تبين تكذيب الأقوام لرسلهم وكيف كان ردة فعل الرسل لهذا الإعراض، وهي قصة موسى وأخيه هارون عليهما السلام مع فرعون وملئه.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ ثم بعث الله بعد الرسل المشار إليهم سابقا سيدَنا موسى وأخاه هارون عليهما السلام إلى الطاغية فرعون وأعوانه وحاشيته و أنصاره

[١٠] المقصود الرسل الذين قبل سيدنا موسى عليه السلام وقد يكون هنالك غيرهم كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [سورة النِّسَاء، الآية ١٦٤]

مؤيَّدين بالمعجزات وهي الآيات التسع التي ذكرت في سورة الأعراف ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ فاستعلوا عن الحق الذي جاءهم، وكان من عادتهم الإجرام والعلو في الأرض ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فلما جاء فرعونَ وملأَه من الله البيناتُ الحقيقية وهي العصا وغيرها الدالة على صدق موسى وهارون قالوا منكرين إياها: هذا سحر واضح لا غبار عليه، ووصفهم الحقَ بالسِّحر لصَدِّ الناسِ عنه و إقناعِهم أن ما جاء به الرسولان باطل أُظهِر في ثوب الحق بفعل السحر ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ فأنكر عليهم موسى عليه السلام ردَّهم للحق ووَصْفَهم إيّاه بالسحر قائلا: كيف تصفون الحق الذي أكرمكم الله به بالسِّحر؟ والسَّاحر لا يفلح مهما كان أمره، ويجوز أن تكون الواوُ في جملة "وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ" واوَ الحال وليست عاطفة؛ فيكون معنى الكلام: أتصفون الحق بالسحر حالة كون الساحرين لا يفلحون؟! ويتهمون موسى وأخاه في نو اياهما من دعوتهما لهم ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أغرضك من دعوتك لنا أن تصرفنا عن دين آبائنا؛ وهذا لأجل أن تكون لك ولأخيك الزعامة والسلطة في أرض مصر؟ فلسنا بمصدقين لكما في رسالتكما، وفي عبارة "وَتَكُونَ لَكُمَا" التفات من خطاب الواحد إلى خطاب المثنى؛ لأن الحواركان في البداية بينهم وبين موسى عليه السلام ثم رأوا أن هارون أيضا معني بالكبرياء الذي رمَوه به فوجهوا الكلام لكليهما.

٣٢. قصة موسى مع السحرة ومع قومه، ودعاؤه على فرعون وملائه

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾

وتأتي مرحلة المواجهة بين موسى وفرعون عن طريق السحرة ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾

الساحر العليم هو الذي يتقن فنون السِّحر، ويبدو أن فرعون استعظم آيات موسى عليه السلام لذا طلب إحضار كل السّحرة المهرة، طمعا في توجيه الضربة القاضية لدعوة موسى عليه السلام وهذا بناء على ظنه أن تلكم الآيات هي من قبيل السحر. ثم يتجاوز ذكر تفاصيل القصة من دعوة الناس لشهود المواجهة وغير ذلك كما في جاء في سورة أخرى وينتقل بنا مباشرة إلى المبارزة بين السّحَرة وموسى عليه السلام ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ وعندما تم تلبية طلب فرعون بإحضار السحرة قال لهم موسى ألقوا حبالكم وعصيكم التي تريدون استعراض سحركم بها، قال القطب اطفيش هذا ليس بأمر من موسى عليه السلام بالسحر -فهذا لا يجوز- وإنما هو من باب التَّهديد أو الإذن فيما لابد منه ليكون بعده إظهار الحق.[11] ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فلما ألقى السحرة أشياءهم وخيل للناس أنها أفاعي حقيقية، قال لهم موسى هذا الذي أتيتم به هو السحر وليس حقيقة، وسيمحقه الله ﷻ ويظهر بطلانه، والله لا يُثبت عمل الذين يفسدون بالسحر وجميع المعاصي. ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ الجملة معطوفة على كلام موسى ومعناها ويثبت الله الحق بإثبات معجزاته ويدْحض باطلَكم، ولو كره المجرمون من فرعون وقومه المناوئين للحق المناصرين للباطل ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ فلم يؤمن برسالة موسى عليه السلام إلا نفر قليل من أولاد بني إسرائيل، رغم مشاهدتهم لمعجزاته، وظهور بطلان سحر السحرة أمام فرعون، وكان هذا الإيمان مع الخوف من فرعون وحاشيته أن يؤذوهم ويعذبوهم. ذَكَرَ الخوفَ من فرعون وملئه بينما أسند الفعل "يَفْتِنَهُمْ" إلى المفرد العائد إلى فرعون؛ لأنَّه هو زعيم الفتنة والتَّعذيب وما يكون من ذلك فهو بأمر منه. وضمير الجمع في "مَلَئِهِمْ" يعود إلى فرعون تعظيما له على عادة الناس، على خلاف بين المفسرين وهذا ما رجحه القطب رحمه الله.[12]

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ وإن فرعون لطاغ جبار في الأرض وهو متجاوز لكل الحدود، فقد ادعى الربوبية واستعبد الناس وتسلط عليهم.

ثم يُقدِّم موسى إلى الذين آمنوا توجيهات ونصائح إيمانية لتثبيتهم ﴿وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ وقال موسى لقومه الذين آمنوا: إن كنتم مؤمنين بالله حق الإيمان ومستسلمين لحكمه فعليكم بالاعتصام به والتوكل عليه وحده ولا تخشوا أحدا، وسيتولى الله حفظَكم من كل سوء. ونستفيد من أسلوب الشرط هذا أن من مستلزمات الإيمان التوكل على الله. ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فاستجاب المؤمنون

---

[11] محمد بن يوسف أطفيش، تيسير التفسير، ج٦، ص٢٩١.

[12] محمد بن يوسف أطفيش، تيسير التفسير، ج٦، ص٢٩١

لأمر موسى عليه السلام قائلين توكلنا على الله وحده[١٣]، ثم سألوا الله ﷻ أن يحميهم من شر فرعون حتى لا يقول الكافرون لو كانوا على الحق ما أصيبوا بالأذى، أو معنى "فتنة" أن تسلِّطَ فرعون وقومه عليهم فيعذِّبوهم؛ أو أن يفتنوهم عن دينهم. وسألوا أن يخلصهم الله بفضله ومنِّه من شرهم وكيدهم ومما كانوا يؤذونهم به ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَبُيُوتًا﴾ وأوحى الله لموسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا للذين آمنوا بيوتا في مصر للسكنى أو للعبادة ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ واجعلوا بيوتكم مكانا تصلون فيه عند الخوف، ولذلك لأنهم كانوا يخافون من فرعون وجنوده فيما لو أظهروا صلاتهم . ، وأدُّوا الصلاة كما أمركم الله، وبشر يا موسى المؤمنين الذين صبروا معك بالنصر على عدوكم وبالجزاء الأخروي. وبعد أن تبين لموسى أن فرعون وملأه طغوا طغيانا كبيرا دعا -هو وأخوه هارون- أن ينتقم الله منهم ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ قال موسى يا ربنا إنك آتيت فرعون وملأه من أموال الدنيا وما يتزينون به -من الذهب والفضة وغيرها- الشيءَ الكثير، فلم يشكروك بل ساهموا بها في إضلال الناس وصدهم عن طريقك المستقيم، واللام في: "لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ" للتعليل، أي أن الله خذلهم بإتيان المال لهم ليضلوا به، وطبعا لا يكون هذا إلا بسبب غيهم، فكان المال فتنة لهم، ولما ذكر موسى في دعائه سبب العقاب دعا عليهم بالعقاب فقال ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ربنا أذهب عنهم أموالهم، واطبع على قلوبهم، ولا تجعلهم يؤمنون حتى يأتيهم العذاب الموجع من عندك، قال القطب رحمه الله في معنى "لَا يُومِنُوا" «والمراد: دعاء الله أن يميتهم على الكفر»[١٤].وإنما يجوز الدعاءُ بذلك على أَحد إذا علم بشقوته، فلعل موسى علم بإعلام الله أنهم لن يؤمنوا، ولذلك لا دليل في الآية على جواز الدعاء على أحد بأن يموت على الشرك، وفي عبارة "زينة وأموالا" عطف العام على الخاص، ومعنى الطمس على أَموالهم إذهابها ، قاله مجاهد ، وقال الجمهور إزالة صورها بالمسخ وتغييرها عن هيئتها ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال الله تعالى لموسى وهارون قد استجبت دعوتكما على فرعون وقومه، فالتزما الاستقامة على الصراط السوي و اثبتا على الحق الذي أنزله عليكما وادعوا إليه، ولا تتبعا طريق الجهلة من فرعون وقومه الذين خالفوا نهجه.

---

[١٣] قال القطب رحمه الله هو إنشاء (أي دعاء) أولى من أن يكون إخبارا. تيسير التفسير، ج٦، ص٢٩٧.

[١٤] امحمد بن يوسف أطفيش، تيسير التفسير، ج٦، ص٣٠١.

٣٣. بيان عاقبة فرعون وجنوده، والنهي عن التكذيب بالآيات

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)﴾

تتواصل قصة موسى عليه السلام مع قومه، فبعد دعائه عليه السلام يذكر الله ﷻ ارتحال المؤمنين، و اتباع فرعون وجنوده لهم ونهايته السيئة بالغرق في البحر.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ وعبر الله ببني إسرائيل البحر وجاوزوه فلحقهم فرعون وجنوده وراءهم ظلما وعدوانا وطلبا للفتك بهم ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ حتى إذا أحاط الغرق بفرعون ووجد نفسه أمام الموت وجها لوجه أقر بالتوحيد والإيمان قائلا: أيقنت وصدقت بألوهية الله، ثم أكد إيمانه باعترافه أنه من المستسلمين لأحكام الله ﷻ. وقوله "وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ" أبلغ من قوله "أسلمت" لأن تلك العبارة تفيد أيضا أنه من زمرة الذين أسلموا قبله. وهذه الحادثة صورة رهيبة لكل من طغى وتجبر فسيأتي يوم لا محالة فيذل فيه ويقهر. ويأتي الجواب الإلهي في تلكم اللحظات العصيبة ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أفي هذه اللحظات يا فرعون وبعد تيقنك من الهلاك تؤمن بالله وتقر له بالعبودية، وقد كنت تعصيه من قبل وكنت من المفسدين في الأرض والصادين عن سبيل الله؟ استفهام إنكاري معناه لا ينفعك إيمانك في هذا الوقت، مصداقا لقوله تعالى ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [سورة النِّسَاء، الآية: ١٨] ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ اليوم ننجي جسمك، أي نحفظه من الضياع في البحر أو الفساد، ونخرجه للناس لتكون عبرة لمن يأتي بعدك من الفراعنة وغيرهم، لعلهم يتعظون بك ويحذرون الطغيان والفساد. وجثة فرعون موسى -ويسمى رمسيس الثاني- محفوظة إلى

اليوم بمتحف في مصر بالقاهرة[١٥] ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ إن كثيرا من الناس لا يتفكرون في آيات الله ولا يعتبرون منها، وهذا تذييل لما سبق يفيد أنه كم من طاغ في الأرض وعاص لله رغم أنه يمر بآيات الله ﷻ في الآفاق من مخلوقاته وفي الأرض من آثار الأمم الغابرة التي أهلكها الله فلا يتعظ منها، أي احذروا أن تكونوا من هؤلاء ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ولقد أنزلنا بني إسرائيل من بعد أن أهلكنا عدوهم منزلا صالحا ورزقناهم رزقا طيبا، وفي هذا امتنان من الله عليهم بالمسكن والرزق الطيب بعد أن عاشوا سنين تحت ذل فرعون وهو انه، وقوله: "مبوأ صدق" مدح؛ لأن العرب إذا مدحت شيئا أضافته إلى الصدق وتقول: رجل صدق، وقدم صدق ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ فبقي بنو إسرائيل على اتباع الوحي الذي أنزل على سيدنا موسى عليه السلام وهو التوراة، ولم يتفرقوا حوله، كما أنهم لم يختلفوا في نبوة محمد ﷺ المذكورة عندهم، إلى أن جاءهم القرآن الذي سماه الله بالعلم فاختلفوا في الإيمان به، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٩] ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ خطاب موجه إلى الرسول ﷺ يقول فيه إن الله ﷻ يبين يوم القيامة من هو محق ممن هو مخطئ من هؤلاء المختلفين فيجازي كُلاً حسب عمله، وهذا تقريع لكل المختلفين اختلافا مذموما ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إن كنت غير متيقن من أخبار هذه القصص التي أوحيناها إليك فاسأل أهل التوراة والإنجيل يخبروك بصدقها ولو أنكر بعضهم ذلك، و﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ على سبيل الافتراض والتقدير والا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا شك لديه، وهذا نظير قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، والآية تعني غير الرسول ﷺ ولو كانت صيغتها للمخاطَب، أي تعريض بالمكذبين من كفار قريش. وهذه الآية ليست دليلا على التوجه إلى أهل الكتاب ولا دعوة لأخذ الحقائق من مصادرهم، فهم معروفون بتحريف كتبهم والكيد للإسلام؛ وإنما المقصود إقامة الحجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب لقطع أعذارهم، والدليل على هذا ما يأتي من قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ثم يؤكد الله أن ما يوحيه إلى الرسول ﷺ هو الحق الذي لا ريب فيه، وينهاه أن يكون من الشاكين المرتابين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ نهي موجه إلى الرسول ﷺ عن أن يكون من الذين لم يؤمنوا بآيات الله فيكون ممن خسر خسرانا مبينا في الدنيا والآخرة، وكل هذا الكلام تعريض بالمشركين الذين كذبوا برسالة محمد ﷺ لعلهم يثوبون إلى

---

[١٥] ينظر في كتاب "موسى وهارون عليهما السلام" من هو فرعون موسى؟ تأليف الدكتور رشدي البدراوي (يتأكد من المعلومة بالرجوع إلى أصل الكتاب)

رشدهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ إن الذين كتب الله عليهم الشقاء لما علم سبحانه من خبث طباعهم لا يصدقون ولا يؤمنون ولو جاءتهم جميع البراهين، و أنواع المعجزات، حتى يجدوا أنفسهم أمام عذاب الله الموجع الدنيوي أو الأخروي، وهذا كحال فرعون الذي آمن لما تيقن من هلاكه.

٣٤. قصة يونس عليه السلام والأمر بعدم الإكراه على الإيمان

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾

تنتقل بنا الآيات إلى قصة يونس عليه السلام وهذا في سياق تحذير المشركين المعارضين وتسلية الرسول ﷺ بما كان يجري بين الرسل السابقين ومعارضة أقوامهم لهم.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ تحضيض بـ "لولا" في معنى النفي، أي لم يوجد أهل قرية من القرى الغابرة آمنوا إيمانا نفعهم إلا قوم يونس عليه السلام، فقد آمنوا لما رأوا أمارات العذاب وتابوا إلى الله توبة نصوحا؛ فكان ذلك سببا في أن يُرفع عنهم الانتقام الذي أوشك أن يحِلّ بهم، وأمد الله في أعمارهم إلى حين وصول آجالهم. ومعنى الآية احذروا أيها الكفار أن يأتيكم العذاب فإن الإيمان في تلكم اللحظات لا ينفعكم شيئا ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ لو أراد الله تعالى أن يؤمن كل من على وجه الأرض من أبينا آدم إلى قيام الساعة لحمل الناس جميعا على الإيمان ولو كانوا كارهين؛ لأن الكون بيده سبحانه، لكن حكمته اقتضت أن يكون منهم المؤمن ومنهم الكافر؛ لأن الإيمان المطلوب هو الإيمان الذي يكون باختيار العبد لا بإجبار الله تعالى. وفي هذا الكلام توجيه للرسول ﷺ الحريص على إيمان كل الناس كما يوضحه قوله ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أتريد -يا محمد- أن تجبر الناس على الإيمان برسالتك؟ سؤال إنكاري معناه لا تحاول أن تكره الناس على الإيمان، وهو في نفس الوقت ترويح له عندما يضيق صدره بمعارضة المشركين، بمفهوم ألاّ يؤمن إلا من سبق في علم الله أنه من السعداء وليس بجهدك وحرصك الزائدين. ويواصل بيان ما سبق وتأكيده ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ليس

لأحد أن يؤمن إلا بمشيئة الله تعالى وتوفيقه، أي فما عليك يا محمد إلا أداء ما بوسعك والله يتكفل بالهداية، وهذا نظير قوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٧٢] ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ويُعِد الله العذاب للذين لا يُعملون عقولهم؛ فيَضِلون بهذا ويَهلَكون، فالعقل والتفكر مناط الهداية، وتعطيله سبيل الضلال. وصيغة المضارع "يجعل" تدل على الاستمرار. ويؤكد قيمة التعقل والتدبر في الهداية قوله ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قل لكفار قومك وغيرهم أن يتأملوا في السموات والأرض، وما فيهما من الآيات الدالة على قدرته وجلاله، لكن لا تفيد آيات الكون و آيات الوحي والإنذارات من يعرض عنها ويصر على عناده. ويأتي تهديد لمشركي مكة ولكل الناس المعرضين عن ذكر الله ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يوبخهم تعالى وينكر عليهم إصرارهم قائلا: هل ينتظرون بعنادهم هذا إلا أن يأتيهم من العذاب مثل ما أتى الأممَ السابقة؟ ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ قل إن لم تثوبوا إلى رشدكم فترقبوا ما سيحل بكم من العذاب، و أنا أترقب نصر الله، وفي قوله ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ إشارة إلى عدم الاكتراث بمعارضتهم وإعراضهم عن الحق. ويأتي بيان ما يترقب الرسول ﷺ من النصر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإذا حل العذاب على قوم مكذبين فإن الله يحفظ رسله والذين آمنوا معهم، وهذا حق ثابت أكده الله على نفسه، و"ثم" هنا للترتيب الذكري أي لبيان الأهمية، وليست للترتيب الزماني؛ لأن التَّنجية تكون قبل حلول العذاب و أثناءه.

٣٥. الأمر بالاستقامة على دين الله وإخلاص العبادة له

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦)﴾

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قل يا محمد - للمشركين الذين يعارضونك أو لكل من لم يؤمن برسالتك- إن كان لكم أدنى ريب في الدين الذي أتيتكم به أنه حق من الله، وادعيتم أن دينكم هو الصّحيح فلست مستعدا -بأي حال- أن أعبد ما اتخذتم آلهة من دون الله من الأوثان وغيرها ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لكن أعبد الله الذي يميتكم، وقد أمرني أن أكون من المؤمنين، وهذا تأكيد لما سبق، وبيانٌ لعلة استحقاق الله ﷻ للعبودية ونفيها عما يعبد هؤلاء المشركون. وقد ذكر صفة التّوفي دون غيرها وجعل المفعول به ضمير

المخاطب في "يتوفاكم"؛ لتهديدهم بالموت الذي يخشاه كل إنسان ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خطاب إلى الرسول ﷺ يأمره الله فيه بالاستقامة على دين الإسلام دين الحنيفية السمحة ملة أبينا إبراهيم عليه السلام، وينهاه أن يكون من الذين أشركوا بالله وعبدوا غيره، وهو خطاب موجه إلى كل المسلمين. و"حنيفًا" من حنَفَ عن الشّيءِ إذا مالَ عنهُ إلى غيرِه، ومعناه هنا مائلا عن الشرك إلى الإسلام، ونسبة الإقامة إلى الوجه "أقم وجهك" استعارة للاستقامة على الدين؛ لأن من أراد النظر إلى شيء نظرة مستقيمة أقام وجهه باتجاهه، وقيل: "وجهك" مجاز عن الذات؛ أي أقم ذاتك على دين الله ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ تأكيد للنهي السابق معناه ولا تسأل أو تعبد شيئا غير الله تعالى مما لا يحقق لك نفعا ولا ضرا، واحذر إن فعلت هذا فستكون ممن ظلم نفسه بالتعرض لسخط الله وأليم عقابه، والكلام لغير الرسول ﷺ كما مر.

٣٦. الأمر باتباع الحق والصبر عليه

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾

لما نهى الله تعالى عن سؤال من لا ينفع ولا يضر من الأصنام وغيرها يبين أن النافع والضار الحقيقي هو الله ﷻ فقال مخاطبا الرسول ﷺ وغيره بالتبع ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ وإن يصبك الله بِضُرّ-كفقر أو مرض- فلا يملك أي أحد أن يرفعه عنك إلا الله ﷻ، ويطلق "المس" مجازا على الإصابة ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وإن أراد أن يصيبك بنعمة أو رخاء فليس بإمكان أحد أن يردها عنك، فهو يصيب بهذا الخير من شاء من عباده وفق حكمته ﷻ، ويغفر ذنوب عباده الصالحين التائبين ويرحمهم؛ فاستغفروه يغفر لكم ويرحمكم. رد الله الفضل إليه بالضمير في (فضله) للدلالة على أن الخير الذي يصل الناس هو تفضل منه ﷻ وليس استحقاقا لهم. ويسوغ أن يعود الضمير في لفظ "به" إلى الضّر فتتضمن الآية معنى الترغيب إلى مغفرة الله ورحمته والتحذير من ضره وعذابه ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قل للناس جميعا قد جاءكم من الله ربّكم القرآن والدين الذي لا تشوبه شائبة من الباطل. افتتحت الآية بالنداء للفت مسامع الناس إلى أهمية ما سيلقى عليهم ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فالذي اهتدى باتباع الحق الذي جاءه من ربه فإن هدايته سينتفع بها هو وحده بما ينال من الأجر

والثواب، ومن انحرف عن سواء السبيل بالإعراض عن الحق فإن وبال ضلاله سيعود عليه بالعذاب الذي يلحقه، فلا مِنَّة لأحد بالاهتداء، ولا ضرر على الرسول بالإعراض ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ولست مسؤولا عنكم؛ فلا أجبركم على الهداية ولا أمنعكم عن الضلال، وإنما أنا مبلغ لكم وكفى ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ واتبع ما يوحيه الله إليك من الحق بالامتثال والتبليغ، والتزم الصبر على الدعوة إلى الله ﷻ وما ينجم عن ذلك من مشاق ومصاعب؛ حتى يقضي الله بينك وبين قومك، فهو خير من يقضي بالحق. وفي الآية كناية عن تهديد الظالمين المعاندين، وإيماء بالنصر المبين للرسول والمؤمنين.

تمّ بحمدِ الله تعالى تفسيرُ سورةِ يونس عليه السلام وتليها سورةُ هود عليه السلام

سورة هود

سورةُ هود سورةٌ مكّيّةٌ؛ عددُ آياتها مئةٌ وثلاثٌ وعشرُون آية؛ ابتدأت بتعظيمِ القرآنِ والتّنويهِ بشأنِه ثمَّ عطفت إلى الحديثِ عن الدّعوةِ إلى الله وتبيينِ حقيقةِ هذهِ الحياةِ وكيفَ يرى الإنسانُ إليها؛ فتذكّرُه بالخالقِ تارةً وتدعُوهُ إلى الرّجوعِ إليهِ تارةً؛ وتُوضّحُ له مصيرَ الأشقياءِ السّرمديَّ في النّارِ، وتدعوهُ إلى الجنّةِ الدّائمةِ وثوابها؛ وفي حديثِ ابنِ عبّاسٍ أنّ أبا بكرٍ قالَ للرّسُولِ ﷺ: قَدْ شِبْتَ قَالَ: "شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ"[١٦] وذلك لما تضمّنته من أخبارٍ عظامٍ.

ثمّ تناولتِ السّورةُ قَصص نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشُعيبٍ وموسى عليهم السّلام وهي بذلك ترسّخُ في ذهنِ الرّسُول ﷺ مبادئ التّعاملِ مع المكابرين عن رسالتِه؛ وتسلّيهِ عمّا يلاقيهِ من قومِه؛ ولم يخلُ كلّ ذلك من تنويعٍ في الحججِ واختراعٍ للأساليبِ البديعةِ لكسبِ قلوبِ الفصحاءِ أهلِ الوثنيّةِ، وفي ختامِ السّورةِ ينبّهُ إلى الحكمةِ من إيرادِ تلكَ القصص وكيفَ أنّ سنّته مع كُلِّ الأقوامِ واحدة لا تتبدّل.

٣٧. الحكمة من نزول القرآن الكريم، وإعراض المشركين عنه

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ(١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ(٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ(٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤) أَلَا

[١٦] رواهُ التّرمذيّ من طريق ابن عباس،:ك: تفسير القرآن عن رسُول الله ﷺ، ب: ومن سورةِ الواقعة، ر: ٣٢٩٧(٥/٢٥٥)

إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(٥)﴾

﴿الر﴾ الحروف المقطّعةُ أو ائل السّورِمن مهماتِ القرآنِ؛ ومن أحسنِ ما فسّرت بهِ أنّها تمثيلٌ لأجزاءِ القرآنِ التي بُنيَ بها؛ بمعنى أنّ الله يتحدّى جميع الخلقِ بأنّ هذهِ الحروف بينَ أيديكم فهل بإمكانكم أن تأتوا بمثلِ هذا القرآنِ؟! ويُناسبُ ذلك أنَّ أغلبَ ما يردُ بعدها ذكرُ الوحيِ ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ هذا القرآنُ كتابٌ سماويٌّ أُتقن نظمُ آياتِه فسلِمت من كُلّ نقصٍ، وجاءت مفصَّلةً بمعنى مقطّعةً يسهُل الأخذُ بها من حيثُ توزيعُها على سُورٍوأجزاءٍ، أو هي مفصّلة من البيانِ فإنّ بعضها يُفسّرُ بعضًا، والإحكامُ مشتقٌّ من الحكمةِ وهو الإتقان والإتمام، و"ثمّ" للرُّتبةِ لا للزّمان لأنّ تفصيلها ليسَ منقطعًا عن إحكامها ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ والإحكامُ والتّفصيلُ كانا من صاحبِ الحكمةِ المطلقةِ والخبرةِ اللاّمحدودةِ؛ إنّه الله الواحد، و"لدُن" معناها "عند"، ومن اللاّفتِ أنّ صفةَ الحكيم تناسبُ الإحكام وصفةُ الخبيرِتلائم التّفصيل.

وبعدَ ذكرِالقرآنِ يوردُ دعوةً إلى مضمونِه بطريقةٍ مباشرةٍ دُون أن يعلنَ عن الدّاعي إليه وهو الرّسُول ﷺ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وذلك الكتابُ جاءَ ليأمرَكم بألاَّ تعبدوا إلاَّ الإله الواحد المستحقّ للعبُوديّة ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ واستيقنوا أنّي جئتُكم مُرسلاً مِن الله أحذّرُكم من وعيدِهِ إن عصيتُموهُ فعبدتُم غيرهُ؛ و أبشّرُكم برضو انه وثو ابه إن أنتم أطعتُموهُ وعبدتُموهُ وحدهُ ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ و إنّي آمرُكم أن تطلبُوا الغفرانَ من الله مما صدَر منكم في حقّه من الإشراكِ والعصيانِ؛ وترجعُوا إليهِ بالالتزامِ والطّاعةِ، و"ثم" هنا رُتبيةٌ أيضًا فليس ثمّة من زمنٍ بين الاستغفارِ والتّوبةِ و إنّما عطفَ بثمَّ ارتقاءً من أمرٍإلى أمرٍ ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يُكرمكم الله بالحياةِ الطّيّبةِ في هذهِ الدُّنيا إلى أن يأتي أجلُكم الذي تُفضونَ فيهِ إلى ربّكم، والأصلُ يُمتّعُكم تمتيعًا وعدلَ إلى اسم المصدرِ، والتّمتيعُ تضمّن معنى الإبقاء واستفيدتِ الحياةُ الطّيّبة من قوله "حسنًا"، والتّعبيرُالقر آنيُّ عنِ الموتِ بأنّهُ وقتٌ سمّاهُ الله لهُ تأكيدٌ لحلولِه وعدمِ تأخّرِه ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ويمنحُ الله لكُلّ عاملٍ مخلصٍ سعادةً دنيويّةً بالغةً وثو ابًا أخرويًّا تامًّا؛ فالفضلُ الأوّلُ العملُ والثّاني الثّوابُ، وإذا وصف الله العبد بأنّهُ ذو الفضلِ فإنّ في ذلكَ غاية التّمجيدِ لهُ؛ على أنَّ انعكاسَ ذلكَ يعني بأنَّ الله هو صاحبُ الفضلِ المطلقِ يُؤتي منهُ، وتسبيقُ الفضلِ على ذكرِالعذابِ فيهِ تنبيهٌ بأنَّ رحمةَ اللهِ أسبق ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ فإن تُعرضُوا أيّها النّاسُ فإنّي أخشى أن يحقَّ عليكم عذابُ النّارِ الدّائم، وفي "تولوا" تاءٌ محذوفةٌ جوازًا للتّخفيفِ والأصلُ "تتولّوا" فالكلامُ للخطابِ بدليلِ "عليكم"، وتنكيرُ"يوم"

للتّهويل منه، ووصفُ اليوم الآخرِ بالكبيرِ كنايةٌ عن شدّته كما وصفَ بالثّقيلِ لمشقّته[١٧]، واستُحسنَ تقديرُ عذابينِ دُنيويّ وأُخرويٍّ مقابلةً لما سبقَ في الثّوابِ فيكونُ اليومُ الكبيرُ في الدّنيا بعذابِ الاستئصالِ وأمّا عذاب الآخرة فهو عذاب يوم القيامة وما بعده ، وعلى التّفسيرِ الأوّل بدأَ بذكرِ العذابِ الأخرويّ ثمَّ عادَ ليقُول: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وسوف تعودون جميعًا أيّها النّاسُ إلى اللهِ للحسابِ والجزاءِ، وتقديمُ الجارّ والمجرُورِ للاهتمامِ ولتربيةِ المهابةِ بذكرِ لفظِ الجلالةِ ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والله قادرٌ على إيتاءِ كُلّ ذي فضلٍ فضلهُ، وقادرٌ على جمعِكم وحسابكم وتخليدِ الشّقيّ منكم في النّارِ وإكرامِ السّعيدِ بالجنّةِ الدّائمةِ؛ وتضمّنَ هذا نوعًا من التّهديدِ لمن تولّوا بأنّهم راجعونَ إلى قادرٍ قويّ.

ثمّ يأتي لحكايةِ حالِ المشركينَ الذينَ توجّه لهم الرّسُول ﷺ بدعوته ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ ألاَ إنّ المشركينَ يخفُونَ في صدُورِهم أمورًا منكرةً ويحسبُونَ أنّ الله لا يطّلِعُ عليها، والثّنيُ الطّيُّ وجمعُ الشّيءِ على بعضِه؛ وجعلهُ للصّدورِ هو تشبيه لها بحالِ ثوبٍ أخفيَ فيهِ شيءٌ؛ والمرادُ بهذا العملِ الإعراض والتّعرّض للنّبيّ ﷺ خفاءً بالذّمّ والمكيدةِ، والهاءُ في "منهُ" عائدةٌ إلى اسمِ الجلالةِ. ويُضيفُ الله أمرًا آخر فيهم ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ألاَ إنّهم لَمّا يتستّرون بثيابهم لئلاَّ يسمعوا للدّعوةِ والآياتِ؛ أو يتستّرُون لأيّ غرضٍ آخر؛ فالله مطّلعٌ على ما يُسرُّونَ في قلوبهم وما يُعلنون بألسنتهم، والافتتاحُ في الموضعينِ بـ"ألا" التي هي حرفُ تنبيهٍ فيه جلبٌ للاهتمامِ لما سيقُول، والجمعُ بين الإسرارِ والإعلانِ تنبيهٌ إلى أنّهما سيّانِ عند اللهِ؛ كما أنّ فيه محسّن الطّباق ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إنَّ الله مطّلعٌ على خبايا النّاسِ جميعِهم؛ وفي هذا تعليلٌ لما سبقَ وتأكيدٌ، و"ذاتُ" تأنيثُ "ذُو" أي عليمٌ بما استقرَّ فيها، والعربُ كثيرًا ما تُطلقُ الصّدر تُريدُ به النّفس وهو مناسبٌ هنا.

---

[١٧] نُشيرُ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان ٢٧].

نموذج من أسئلة المسابقات السابقة

حتى يتعرف المشارك على طبيعة وطريقة أسئلة المسابقة، فيما يلي نموذج لبعض أسئلة المسابقات السابقة:

١- قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ تضمنت الآيتان علاجا لوسوسة الشيطان هو:

أ	ذكر الله والاعتصام به وطلب الحماية منه لأنه العليم به وبنزغه.
ب	عدم التمادي مع الوسواس حتى لا يتمكن في القلب.
ج	جميع ما ذكر صحيح.

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

ما الفرق بين الاستماع والإنصات؟

أ	الاستماع محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت، والإنصات رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره.
ب	الاستماع رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره ، والإنصات محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت
ج	لا يوجد فرق بينهما، وقد جاء طلب الإنصات تأكيدا لطلب الاستماع

٣- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (الْأَنْفَالُ) هي:

أ	الغنائم من الحرب.
ب	ما يتقرب به المسلم إلى الله من النوافل.
ج	قوافل التجارة.

٤- قال تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ كره فريق من المؤمنين الخروج للقتال ببدر بسبب:

أ	عدم استعدادهم للقتال، حيث كانت نيتهم الأولى هي التعرض لعير قريش وليس القتال.
ب	للخوف من العدو حيث كان عدد المسلمين قليلا.
ج	أ و ب صحيحتان .

٥- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الطَّائِفَتَيْنِ) هما:

أ	المسلمين والمشركين.
ب	العير المقبلة من الشام وما تحمله من أموال وبضائع، وقتال النفير المقبل من مكة والنصرة عليهم.
ج	المسلمين واليهود.

٦- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ معنى الاستدراج الوارد في كلمة (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ):

أ	سيرسل الله لهم الآيات والأوبئة والمصائب مما يجعلهم يقنطون من رحمة الله تعالى، فيأخذهم بغتة من حيث لا يشعرون.
ب	سيبسط الله لهم من الرخاء والنعماء ما يجعلهم ينسونه ويستبعدون عقابه، فيأتيهم بأسه من حيث لم يسبق لهم به علم.
ج	سيرسل الله تعالى إليهم السراء والضراء مما يجعلهم ينسونه ويقنطون من رحمته، فيأخذهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون.

٧- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ورد في تفسير (كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا):

أ	كأنك تتعمد إخفاءها على قومك رغم علمك بها من خلال الوحي.
ب	كأنك صاحب معرفة بها وبحث في شأنها ومهتم بها.
ج	كأنك على اطلاع بإمارات قيام الساعة ولكن تخفيها على قومك للاستعداد للامتحان الدنيوي.

٨- قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ مشيئة الله هنا تعني:

أ	إيمان الإنسان أو كفره بيد الله وحده، ولا اختيار للإنسان فيه مطلقا.
ب	يمكن للإنسان أن يتحول إلى غير دينه بنفسه واختياره المطلق دون أن تكون للمشيئة الإلهية أي تدخل في هذا الجانب.
ج	التأدب مع الله سبحانه وتعالى الذي جعل كل شيء بيديه، حتى إيمانهم الذي تمكنوا فيه، فلو شاء الله خذلانهم بالكفر ما منعه مانع.

٩- قالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ "لخاسرون" كانوا يقصدون بها:

أ	التحذير من اتباع شعيب عليه السلام بوقوع الهلاك والخسارة والمتمثلة في أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم كما يظنون؛ لأن الظاهر أنهم لا يعتقدون البعث.
ب	التحذير من خسارة ما يجنونه من الأموال نتيجة تطفيف المكيال والميزان وغش الناس.
ج	أ و ب صحيحتان.

١٠- قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ في هذه الآية الكريمة يحذر الله المؤمنين من بلاء يصيب:

أ	المسيء بظلمه ومخالفته لأمر الله تعالى.
ب	غير المسيء لسكوته عن المخالفين وعدم إنكاره المسيء مع القدرة على ذلك.
ج	"أ" و "ب" .

١١- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى ....., وكان ذلك في .....

أ	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى اليهود، وكان ذلك في المدينة المنورة.
ب	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في مكة المكرمة.
ج	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في المدينة المنورة.

١٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ المكر هو ....., وتفسير مكر الله سبحانه وتعالى هو .....

أ	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو إلهام نبيه صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن نفسه بمخادعة الكفار ورد مكرهم عليهم.
ب	المكر هو محاولة إيقاع الضرر بالقوة، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو رد مكر الكافرين عليهم بإرسال ملائكته لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم.
ج	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو حفظ الله لرسوله وإفشال مكر الكافرين حيث أنجاه الله منهم وحفظه وردد مكرهم عليهم.